مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع « الرؤية »

محرم ١٤٣٨ هـ – أكتوبر ٢٠١٦م

• «التحليل الإحصائي للمنشورات العلمية»
• رفائيل بال

• «الحرب الأهلية»
• جيورجيو أغامبن

• «اللاجئون: حل واقعي في مواجهة الكارثة الإنسانية»
• سامي نعير

• «النخبة الفكرية والانشقاق»
• محسن الموسوي

• «تاريخ التصوف الغربي»
• ماركو فَنَيني

• «دمشق في القرون الوسطى: التعدد والتنوع في مكتبة عربية»
• كونراد هيرشلير

•«زمن بيبليوسكوب: الحداثة في مرآة ثقافة الكتاب»
• يوليا شيربينينا

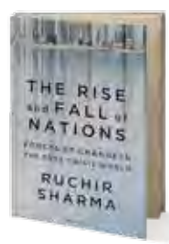

• «صعود الأمم وسقوطها»
• روتشار شارما

• «صندوق النقد الدولي: قوة عظمى في الساحة العالمية»
• أرنست فولف

• «عوالم الصدق: نحو فلسفة للمعرفة»
• إسرائيل شفلر

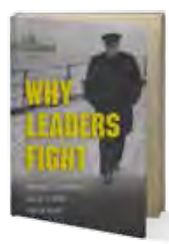

• «لماذا يحارب القادة؟»
• مجموعة مؤلفين

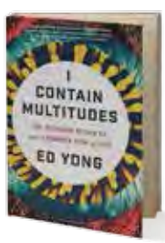

• «المحتوى المتعدد: الجراثيم في داخلنا ونظرة أوسع للحياة
• إد يونج

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من المصادر الأجنبية المتصلة بعمان كتاب «رواية شخصية لرحلة منْ الهند إلى إنجلترا» للعسكري والسياسي البريطاني جورج توماس كيبل، وقد نشر في لندن، سنة ١٨٢٧. وهو حصيلة رحلة عودته من الهند إلى إنجلترا، وقد زارَ فيها العراق، وبلاد فارس، وعُمان، حيث توقف في مسقط في فبراير سنة ١٨٢٤.

يذكر كيبل أنّه بعد زيارته للسلطان سعيد بن سلطان ذهب ليلقي نظرة على المدينة، وقد رأى المحلات التجارية تغطى من فوق سقفها لحماية البضائع التي تعرض للبيع على الأرصفة أمام المحلات. كما رأى جماعات كبيرة من المهاجرين الهنود، وبخاصة من الهندوس، يمارسون تجارة الجملة والتجزئة. وقد لاحظ، وسط السلع التي تعرض للبيع، أقمشة خشنة، والحبوب باختلاف أنواعها، والحلويات، والجراد المشوي، وعلاوة على هذه، رأى كميات كبيرة من الملح والكبريت، التي أكد أنها من -مخلفات ثروة هرمز-. ويصف كيبل المنازل بأنها مسطحة السقوف، ومبنية من الصخر غير المنحوت. ويقول إن «الشوارع قذرة جداً، وضيقة لدرجة أنني إذا مددت ذراعي ألمس الجدران من كل جانب. والمدينة صغيرة تشكل دائرة بقطر ميلين، وتضم ألفي نسمة». ويؤكد كيبل أن كل المسلمين يحرمون شرب الخمر، ولكن الإباضيّة أشد صرامة في ذلك من الآخرين في المبدأ والممارسة. وهم لا يمتنعون فقط من كل أنواع الخمور، بل من التبغ أيضاً، ومن كل نوع من أنواع الأبهة والفخامة في ملبسهم وفي منازلهم أو في مساجدهم. «لا يعبدون ولياً أو درويشاً. ولديهم تقدير عظيم للعدل، وتسامح عالمي تجاه الأديان الأخرى».

ويذكر كيبل أنه في السادس من فبراير، أتيح له أن يقوم بزيارة للعيون الساخنة في بوشر، على بعد نحو عشرين ميلاً. ويقول إنه أخذ معه شخصا اسمه جعفر، المشرف على إسطبلات خيل السلطان، وكان دليلهم السياحي. ويقول إنّهم بدأوا التحرك في ساعة مبكرة على زورق صغير، إلى بلدة صغيرة تسمى مطرح، على بعد خمسة أميال. ويضيف أنه من لطف السلطان أن كل الإنجليز الذين يزورون مسقط يزودون بفرس من أفراسه في الإسطبل. وبعد الإفطار، كانت هناك ثلاثة أفراس أمام الباب أحضرت لهم لهذه الرحلة. ويقول كيبل إنّهم وصلوا بوشر بعد ساعتين، فوجدوا حرارة ماء العين الساخنة حوالي ١١٣ درجة فهرنهايت، وكان الماء ينبع من شق في الجبل ويجري سريعاً في جدول بقطر ثلاث بوصات. ويذكر أنه لا ينبعث من الماء أي غاز، وليس في طعمه أي أثر لمادة الزئبق، ويستخدمه سكان القرية لأغراض الطبخ، وللعلاج من أمراض الجلد. ويؤكد كيبل أنهم ملأوا زجاجة لغرض التحليل من هذه العين.

hilalalhajri@hotmail.com

«التحليل الإحصائي للمنشورات العلمية ومعالجة البيانات في عصر الأونلاين».. لرفائيل بال

رضوان ضاوي *

يُناقش المُؤلف الأستاذ رفائيل بال في هذا الكتاب نشأة «علم التحليل الإحصائي للمنشورات المكتوبة أو علم تحليل الاستشهادات المرجعية»، الذي يعمل على مساعدة أُمناء المكتبات في عملهم، وأثناء اختيارهم للكتب؛ من أجل تحسين تدبير وجرد هذه المطبوعات. ويرى الكاتب أن «علم تحليل الاستشهادات المرجعية» يعمل على قياس حجم المطبوعات لفرد ما. ويُعَد المنشور -الذي أَوردت عنه العديد من المنشورات الأخرى استشهادات، وذكرته العديد من المصادر- منشورًا مهمًّا جدًّا. وفي المقابل، تُعد المنشورات التي لم يتم الاقتباس منها أقل أهمية.

بدأ الكيميائي الأمريكي «أوغن جرفيلد» في الخمسينيات من القرن العشرين تقييم مقالات المجلات على المستوى التنظيمي. أما الفيزيائي «دي سولا بريس»، فقد بحث في سنة ١٩٥٦ في مقال له بمجلة «علم» في موضوع التواصل بين المؤلفين و«سلوك الاقتباس» من العلماء. وقد أصبح هذا المجال يدخلُ ضمن «حقل بحثي إحصائي» يُناسب حاجات العصر حسب تعبير الكاتب.

وأوضح الكاتب أنه كلما كان عدد المطبوعات وكل أشكال النتاج العلمي كبيراً، كان تقييم الإنتاجية العلمية وتقييم الاستجابة المناسبة للاستشهادات ضروريا؛ فمثلاً لا يوجد رئيس جامعة لا يعرف موقع مؤسسته ضمن المقارنة الوطنية والدولية، وكذلك السياسي هو مُهتم بالموضوع: «العلم والسياسة يُؤثر أحدهما في الآخر ويراقب أحدهما الآخر».

جاء هذا الكتاب في وقته؛ لأنَّ استخدام «التحليل الإحصائي للمنشورات المكتوبة» أثار في الجامعات وعند العلماء إشكالية المناهج ومشكلة الفهم، كما أثار إشكالية قاعدة البيانات و«ثقافات النشر» المختلفة والمتباينة بعد أن زاد اهتمام المتخصصين في القرن الحادي والعشرين، بالوصول إلى «القدرة على استعمال أكبر كمية من البيانات بسرعة عالية وبشكل مسؤول»، أي ما يُسمى (Datability)، وتعني تبادل المعلومات عبر الشبكات العالمية المترابطة فيما بينها وعبر سجلات البيانات ومراكز البحث. وتكمن أهمية ارتباط التواصل شبكياً في جعل العالم أكثر سرعة. وقد تنبه العلماء لهذا البُعد الإعلامي الجديد بسبب توفر البيانات في الشبكة العنكبوتية وحضور البيانات الشخصية في الوسائط الجديدة، وهذا البُعد يُتيح إمكانيات هائلة مُعاصرة للتعاون والتشارك والعمل المشترك؛ من أجل تقييم المنشورات العلمية وتأثيرها على مجال بحث معين. وهُنا يتم استعمال منهجيتين: المنهجية الكمية، والمنهجية الكيفية النوعية. ويتعلق الأمر بالمعاينة من جانب، ومن جانب آخر يتعلق بالتحليل الإحصائي للمنشورات.

وأوضح الكاتب أنَّ فائدة التحليل الإحصائي هي الاستجابة لفهم العناصر المكونة للعلم جميعها، وتعرف الأنشطة العلمية في كل تخصص، وطنيا ودوليا، ومعرفة مدى تأثير كل بلد أو جهة على مجال معرفي معين، إضافة إلى تعرف أساليب العمل المشترك الوطنية والدولية، ومدى علمية العلماء ومعرفتهم بالتطورات الجديدة في بعض المجالات المعرفية. وفي رأيه، فإن هذه الأبحاث تهدف لزيادة إنتاج المنشورات العلمية ومعرفة خصائصها الوصفية وتحليل الاستشهادات التي تفتح مسالك جديدة للتواصل. ويُعد هذا الإحصاء الكمي للمنشورات وسيلة تبليغ للبيانات الموضوعية التي تخص النشر.

وتضع مناهج التحليل الإحصائي للمنشورات العلمية للأفراد، وللمعاهد وللمؤسسات، وللجامعات، والجهات والدول شهادات عن كمية وحجم التكرار، وعن المعنى والارتباط للمنشورات. إنها مناهج رياضية وإحصائية تعمل على تغيير قضايا ومسارات الإفادات الكتابية.

ويعودُ أول تحليل إحصائي للمنشورات للعالِمَين كول (Cole) وايليس (Eales)، وهما عالمان درسا سنة ١٩١٧ نوعية الكتب التي ظهرت بين (١٥٥٠-١٨٦٠) في مجال علم التشريح. ورغم أنهما لا يستعملان أية استشهادات في عملهما، إلا أنَّ الهدف من هذا العمل هو تحديد وحصر أهم عناصر محتوى حجم المطبوعات في مجال مُعين وفترة محددة.

أمَّا ما قام به جروس (Gross) وهو أول عمل إحصائي تحليلي للاستشهادات؛ فيعود إلى العام ١٩٢٧. إذ حلل الباحثان هوامش الاستشهادات المستعملة في مجال الكيمياء واستطاعا وضع لائحة للمجلات الأكثر وُرُودًا في تخصص الكيمياء. وقد استفاد هذان الباحثان من وظيفتهما باعتبارهما أُمناء للمكتبات ومن تجربتهما الطويلة في الميدان، وحاولا استغلال دراستهما من أجل إيجاد وسيلة تساعد على تحصيل المجلات عبر مكتسبات هذا البحث.

ويربط المؤلف بين عمله هذا وتجربته في مجال المكتبات باعتباره مؤرخًا للعلم، وفيلسوفًا، ويعمل حاليا مديرًا لمكتبة معهد التكنولوجيا بزيوريخ في سويسرا. كما أنَّ لديه العديد من المنشورات في موضوع المكتبات وتغيير وسائط الإعلام. ويمتد اهتمام المؤلف بال بهذا الموضوع إلى كتابات سابقة له مثل كتابه «التحليل الإحصائي للمنشورات» ٢٠١٣م، وكتابه «نهاية قطب، ماذا يبقى حقيقةً من المكتبات؟» ٢٠١٣م، إضافة إلى كتب لمؤلفين آخرين مثل كتاب «الإشراف الرقمي على المكتبات» للباحثة أنتيا تسوكر.

يروي الكاتب بأن الأمريكي الرياضي «ألفريد جيمس لوتكا» بحث في العام ١٩٢٦ إنجازات العلماء، وعمل على وصف العلاقة الموجودة بين الكاتب والمنشور. إن القليل من المُؤلفين لديهم الكثير من المطبوعات، والكثير من الكتاب لديهم القليل من المطبوعات. وتسمى هذه العلاقة «قانون لوتكس» (Gestzt Lotkes)، واهتم الكيميائي الأمريكي أوغن بالموضوع، فوضع مجموعة من البيانات (Current Contents) عن المطبوعات وعن الاقتباسات وأنتج دليلاً للمحتويات، بصورة قاعدة بيانات بالإنجليزية توفر معلومة سريعة عن المنشورات المُتاحة لأهم المجلات. وقد أسس معهد «المعلومة العلمية» (ISI)، وحقق بذلك مشروعًا مهما هدَف إلى مساعدة أُمناء المكتبات أثناء قرار شراء الكتب، خاصةً المجلات. فاستُعملَت مؤشراته من أجل تقييم الأشخاص والمؤسسات.

إلى جانب التصور الكلاسيكي للمعرفة، أصبح القياس مهما أيضًا لمضامين الشبكة العنكبوتية: أي لمضامين المنشورات المفتوحة والمواقع الخاصة على النت. والتحليل الإحصائي للمنشورات الرقمية (Webmetrie) هو إحصاء لمحتوى المواقع على النت، وهو يُضيف قيمة لمفهوم التحليل الإحصائي البنيوي، وتُغني إجراءات استعمالها. إن تحليل كميات كبيرة من البيانات (Big Data) يُعد تحديا جديدًا، أو بمعنى أدق «فُرصة جديدة تُتيح دائمًا تحليلاً إحصائياً مفصلاً للنتائج العلمية». فإلى جانب اعتماد المنشورات وتحليل الاستشهادات، جاءت التطبيقات الكمية التي توسع من دائرة المؤشرات (عدد التحميلات، مدة الانتظار عند تحميل الوثيقة). ويشيرُ الكاتب إلى أن فكرة إحصاء المنشورات جاءت على مرحلتين: أولاً الإحصاء العلمي، وثانياً الضبط الكيفي والقيمي. إنَّ تحليل كمية النَتاج العلمي له أهمية خاصة للعلماء ولمدبري الشأن العلمي وكل السياسيين الذين يحملون قرارات في مواضع استراتيجية للجامعات وللمؤسسات البحثية وللوزارات. كما تُتيح حصر وإحصاء البحوث التي تم الإشراف عليها في الجامعة. ومع ظهور النت ومع التغييرات في التواصل العلمي أصبح هذا المفهوم غير محدد؛ لهذا فمن يُرد إحصاء المنشورات، عليه أن يحدد ما الذي يريد قياسه وأيّ نوع من المنشورات يستخدمه القاعدة للتحليلات.

ويُثير الكاتب تساؤلاً مهما؛ هو: إلى أي حد يمكن أن يُبلغ الإجراء الإحصائي التحليلي للمنشورات صورة كاملة وموضوعية عن قدرة وجودة العلماء ومعاهدهم بالاقتصار على قياس أشكال النشر الكلاسيكية (كتب، ومقالات)

والإلكترونية (مقالات علمية، ومدونات)؟

ويُضيف إنَّ إدراك وفهم المنشورات يتم عبر نظام يعترف بقدرات علماء آخرين أو يتعامل معهم بالنقد البناء؛ حيث ينشأ تاريخ معين لفهم الأفكار والمعارف، نسميه «تاريخ التلقي». و«تاريخ التلقي» في مجال التحليل الإحصائي هو «قياس الصدى، أي قياس تكرار الاقتباسات في منشورات معينة من طرف العلماء، وهو أهم مؤشر أساسي لتحليل الصدى». وكثرة الاستشهادات دليل على عدد الاقتباسات لمنشور ما في فترة زمنية معينة. إنَّ القبول بأن منشورًا ما يحوي الكثير من الاستشهادات يُعدُّ عملاً مهما، ربما هو أكثر احتمالية من قبول أن مطبوعًا ما يحوي اقتباسات قليلة أو بدونها هوعمل غير مهم ولا قيمة له. إنَّ استعمالَ التحليل الإحصائي للمنشورات يعطي أهميته، ومعناه الكبير فقط في المقارنة: مقارنة أرقام عن المطبوعات العلمية وعن تكرار الاستشهادات. المقارنة مع أشخاص ومع معاهد ومع مجموعات وفرق للبحث، وبين مناطق أو بلدان تجعل الوضعيات واضحة وقابلة للتفسير. ويتحدث الكاتب هنا عن «الشريك المقارَن» الذي نحتاجه عند قياس قدرات العلماء في مجالات علمية معينة.

حققت إتاحة المطبوعات العلمية ومضامينها في النت بعدًا تواصليًا مهمًا. ويُساعد تحليل المحتوى الرقمي على ربط بنيات وتشعبات ومحتويات الويب أثناء دراستنا للمطبوعات العلمية الموجودة أونلاين. ويَعرض إحصاء المحتوى المناهج العلمية على الويب والمناهج الإعلامية باعتبارها جزءًا من علم الإعلام. ومع الوثائق الرقمية عاد ما كان طيلة قرون تقليدًا، جزءًا من الكتب المتخصصة العلمية التي لا يمكن إنتاجها في أي دار نشر إلا بعد دفع أتعاب الكاتب. وبالضد، فإن إحصاء تكاليف تحميل كل وثيقة يُتيح لنا معرفة إلى أي مدى هو عمل علمي مهم. فكلما كانت بيانات العلماء والشواهد والمطبوعات بمختلف أشكالها متاحة، ساعد ذلك على استخلاص أهمية المطبوعات وأهمية مؤلفيها. ويجب أن نلاحظ أن هناك نموًّا كبيرًا للبيانات التي تخص الأشخاص والشواهد والقدرات في النت، ومضامين مواقع النت والمواقع الاجتماعية، والمدونات والشات، وأيضا بيانات الهواتف الذكية نحصل منها على معطيات مهمة عن العُلماء، وتترك لنا حقائق عن أهميتهم العلمية.

لا تأبه الدراسات القانونية كثيراً بالنشر الإلكتروني، فهي تقليدية سلطوية، كما أنَّ هناك استعمالاً خجولاً للإنترنت في مجال الأدب وعلم الآثار إذ لا يجد نفسه جذاباً في النت. أما العلوم الطبيعية فيبدو أنها مواكبة للتطور التكنولوجي وتطور المعرفة وأشكال التبليغ. في حين تختلف مصادر الشواهد وتتنوع: فالعلوم الطبيعية والتكنولوجيا والطب، تستقي ٨٠٪ من الشواهد في المجلات العلمية، و«هنا نعترف بسيادة ثقافة المجلات العلمية في مقارنة مع ثقافة الدراسات عند العلوم الإنسانية والاجتماعية».

وقد عملتْ ندوة التسجيل (Rus) السويسرية على مشروع «معايير الجودة» في البحث في العلوم الإنسانية. وينطلق المشروع من مسألة أن الكثير من النتاج العلمي في العلوم الإنسانية يصعب ضبطها، واستعمال الإجراءات الإحصائية التحليلية والمؤشرات توضح أنه لا يمكن تغطية كل البيانات العلمية، فمن ناحية توجد مجموعة من الإنجازات في مجال البحث لا أثر لها في البيانات الإحصائية، ومن ناحية أخرى لا توجد قاعدة بيانات مناسبة تسمح بمعالجة المؤشرات البيبليوغرافية الكلاسيكية لهذا التخصص.

ويستهدفُ مجال الطب والتقنيات والعلوم الطبيعية الجمهور الدولي؛ لأنَّها مجالات تتناول مواضيع علمية عالمية. هذه النتيجة تفرض عليها كتابة نَتاجها العلمي باللغة الإنجليزية، لغة العلم؛ كي تُنشر على المستوى الدولي لأنها تستهدف الجمهور الدولي. وتنشر الطب والعلوم الطبيعية نتائج أبحاثها في المجلات العلمية ومجلدات أعمال الندوات.

بينما نجد العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية تعالج مواضيع وطنية ومحلية، وتهتم العلوم الإنسانية في نتاجها بظواهر خاصة بسياق جغرافي واجتماعي معين؛ لهذا فهي أعمال قد لا تكون مهمة للجمهور الدولي؛ لذلك تشكل الكتابة باللغة الوطنية طابعًا خاصًا بها. يغلب على العلوم الإنسانية الاستشهادات المحددة والمتعارضة، وتطبع محليا أو وطنيا على شكل كتب فردية وجماعية ومقالات في مجلات.

وحين نتحدث هنا، نتحدث عن «سلوك النشر» أو «ثقافات النشر»، ونستنتج أن شكل المقالات في المجلات العلمية المتخصصة يغلب على نَتاج هذه التخصصات. بينما تحتل الكتب مكانة عالية في التواصل العلمي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية مقارنة بما يسود في العلوم الاجتماعية والإنسانية الدراسات والكتب الجماعية وأعمال الندوات، لكن المقالات المنشورة في المجلات العلمية ما تزال تحتل مرتبة أدنى. ويبدو أن التحليل الإحصائي للمنشورات العلمية يهتم فقط بقياس وتقييم الإنجازات العلمية المكتوبة، ولا يهتم بجودة هذه الإنتاجات. فهو يُركز فقط على تاريخ التأثير وعلى ثقافات وسلوكات النشر.

ويُؤكد المؤلف على أن الكثير من العروض، والندوات والمعارض والتعليقات في المدونات والمراجعات وعدد من الرسائل الجامعية والتكريمات والجوائز وأنواع أخرى لم تصنف في مؤشرات التحليل الإحصائي للمنشورات العلمية. ويستعرض المؤلف المزيد من المؤشرات التي تُستعمل في ضبط الإنجازات العلمية في شتى التخصصات المعرفية، كالآتي:

- تمكن مؤشر هيرش -عالم فيزيائي أمريكي- من إتاحة قاعدة بيانات مقارنة وموضوعية ومضبوطة عن أهمية إنجازات العلماء. وتمكن هذا المؤشر من اعتلاء مكانة لدى مؤسسة المجتمع العلمي Scientific Community. إن دليل هيرش (مؤشر هيرش/ عامل هيرش) هو عبارة عن جمع بين عدد من المنشورات وتكرار الاستشهادات. فمؤشر التأثير يقوم بإحصاء عدد من المقالات في مجلة ما، وعدد الاستشهادات التي تحتوي عليها كل مقالة، ثم يوزع عدد الاقتباسات على عدد المقالات. من هنا نستطيع ترتيب هذه المطبوعات حسب عدد الاستشهادات الموجودة؛ لنتمكن من رؤية مدى تأثير مؤشر هيرش. يساعد مؤشر التأثير على قياس جودة مجلة ما من خلال قاعدة العلاقة بين عدد المقالات ومجموع الاستشهادات. إنه وسيلة تساعد على تحديد جودة المجلات، لكن هذا المؤشر لا يهتم بتحديد جودة المقالات ويقيم أهمية جماعة علمية إلا إذا نشرت هذه الجماعة في عامين أكثر من مائة مطبوع.

ويساعد ضبط ثمن الوثيقة المحملة من النت وعدد التحميلات وعدد القراء (نلجأ إلى عداد القراء) لتوثيق بيانات النت العلمية. ولا يمكن لهذه البيانات أن تعوض الاستشهادات ولكنها تكمل عملها.

- تقدم شبكة المعرفة (web of Science) بدائل للاعتراف بالأشكال الجديدة العصرية للتواصل العلمي وللمقالات العلمية. ويفيد هذا المؤشر في مراقبة المؤشرات العلمية المبنية على الاشتراكات في النت، ويديرها تومسون رويترس: إنها تقدم خدمات شاملة في مجال البحث في الاستشهادات، وتتيح لنا إمكانية الوصول إلى العديد من قواعد بيانات مُختلف مصادر الأبحاث المتخصصة.

- أما سكوبوس (Scopus) لـ(Elsevier)؛ فهي عبارة عن قاعدة بيانات للاستشهادات والملخصات مُؤدى عنها للمقالات الصحفية العلمية، وضعها السيفير (Elsevier) منذ ٢٠٠٤ وتتيح للمكتبات الوصول المباشر للبيانات وللنصوص الكاملة في مجال العلوم الطبيعية والطب، كما تضم ملخصات المداخلات في الندوات والكتب. وأخيرًا، يُعد جوجل سكولار محرك بحث خاص بالمؤلفات العلمية والأكاديمية، حيث توجد فيه أبحاث ورسائل علمية ومقالات، ويسمح للباحث باستخدام معايير بحث خاصة بالمكتبات مثل اسم الكاتب أو تاريخ النشر.

وأرى أن الكاتب عمل عملاً مهماً، ألحق به معجماً سرد فيه ٤٦ مفهوما ومصطلحًا علميا خاصا بعلم المكتبات. أما البيبليوغرافيا فأغلبها مقالات علمية منشورة في مجلات علمية باللغة الإنجليزية، مما يحيلنا على فكرة الكتاب نفسه، بأن المواضيع العلمية تُكتب باللغة الإنجليزية وتُنشرُ في المجلات. إن ترجمة عربية لهذا الكتاب لا شك ستُغني المكتبة العربية التي تُعاني فقرًا شديدًا في مجال التحليل الإحصائي للمنشورات العلمية.

- الكتاب: «التحليل الإحصائي للمنشورات العلمية ومعالجة البيانات في عصر الأونلاين».
- المؤلف: رفائيل بال.
- الناشر: دنجس وفريك فيسبادن، ألمانيا.
- سنة النشر: ٢٠١٥.
- اللغة: الألمانية
- عدد الصفحات: ١٥٨ صفحة.

*** مترجم وباحث مغربي في الدراسات الألمانية**

«الحرب الأهلية».. لجيورجيو أغامبن

محمد الشيخ *

«النسيان»، «التهميش»: ذانك هما الوصفان اللذان يترددان تحت أقلام من يسعى اليوم من مفكري وفلاسفة السياسة والحق والحرب إلى أن يفكر في ظاهرة «الحرب الأهلية». وقد جرى الوصف الأول بقلم إحدى أهم الباحثات الفرنسيات في الحروب الأهلية - نيكول غرانجي - حتى أنها كتبت في شأنه كتابا عنونته بالعنوان المتسائل: «نسيان الحرب الأهلية؟» (٢٠١٥)، أما الوصف الثاني، فقد ورد على لسان الفيلسوف الإيطالي المعاصر جيورجيو أغامبن (١٩٤٢-) - الذي لا يكاد يوجد له كتاب مترجم إلى العربية اللهم باستثناء كتاب واحد هو «حالة الاستثناء» (٢٠١٥) - وذلك في كتابه «الحرب الأهلية» الصادر بالإيطالية (٢٠١٥) والمترجم إلى الفرنسية (٢٠١٥).

والكتاب في الأصل عبارة عن محاضرتين كانتا قد ألقيتا بجامعة برينستون. وهما تتضمنان أطروحتين أساسيتين: تقول الأولى بأن ماهية الحرب الأهلية تكمن في كونها «عتبة» تسييس الغرب، وهي الحرب التي تنقله من دائرة «الأسرة» الضيقة - دائرة اللا سياسة - إلى دائرة المدينة بمعناها الإغريقي -الدولة- - دارة السياسة. وتقول الأطروحة الثانية: غياب الشعب هو العنصر المكون للدولة الحديثة. وإذ يقر الفيلسوف الإيطالي بأنه ما يفتأ يقتنع على مر السنين بهاتين الأطروحتين الأساسيتين اللتين وردتا في هذا الكتاب، فإنه يتساءل - وهو يشرك القارئ في هذا التساؤل - عما إذا ما كان أمسى ما يسمى «الحرب الأهلية العالمية» - التي صارت اليوم مقترنة بظاهرة الإرهاب العالمية - قد غيرت من جوهر هاتين الأطروحتين أم لا.

المحاضرة الأولى: الحرب الأهلية في التصور الكلاسيكي الإغريقي

يفتتح أغامبن محاضرته الأولى هذه بالتأكيد، لا فحسب على أن الفكر والفلسفة السياسيين لازالا اليوم يفتقدان إلى نظرية في الحرب الأهلية، وإنما ما يشغله في هذا الأمر هو عدم التنبه إلى هذا الغياب، إذ هو من جنس الغياب غير المبالى به أو المأبوه له. وقد سبق للمنظر السياسي والحقوقي الألماني رومان شنور أن شخَّص هذا الوضع منذ عام ١٩٨٠، مسجلا ترافق غياب الاهتمام بالتفكير في الحرب الأهلية بتطور «الحرب الأهلية العالمية». وإذ يزكي أغامبن ملاحظة شنور، فإنه يؤكد على أن أنموذج «التوافق» الذي يسيطر اليوم على الممارسة والنظرية السياسيين لا يشجع على دراسة جديدة لظاهرة قديمة على الأقل قدم الديمقراطية الغربية: ظاهرة الحرب الأهلية (ص. ٩).

وإذ يقر أغامبن أنه توجد ثمة في ساحة الفلسفة السياسية والحقوقية وفي علميهما نظرية في النزاع Polémologie - أو نظرية في الحرب - كما توجد نظرية في السلم Irénologie ، فإنه يؤكد، مع ذلك، على أنه ليست توجد بالقطع نظرية في الحرب الأهلية Stasiologie (ص. ١٠). ويعود ليزكي رأي شنور في الربط بين هذا الغياب وتنامي ما يدعوه «الحرب الأهلية العالمية». ويرجع بنا إلى أصل هذا الاصطلاح الأخير الذي يجده لدى الفيلسوفة حنة آرندت (١٩٠٦-١٩٧٥) في كتابها «في الثورة» (١٩٦٣) والذي نحثه لتدل به على «ضرب من الحرب الأهلية التي تشعل الأرض برمتها»، كما استعمله في السنة ذاتها المفكر السياسي كارل شميت (١٨٨٨-١٩٨٥) ليصف به عمل من يسميه «المتحزب» ذي النزوع الإرهابي. ومهما كان التاريخ الذي يعود إليه هذا الاصطلاح، فإنه يشي بنهاية المعنى التقليدي للحرب، حتى حرب الخليج جرت من غير ما أن يعلن المتنازعون حالة الحرب، وبخلق حالة من الفوضى عارمة دعت بعض المفكرين السياسيين إلى تسميها «الحروب اللا أهلية». على أن التفكر في حروب زماننا هذا ما انتهى بالمنظرين السياسيين إلى التفكر في الحرب الأهلية، وإنما أدى بهم فحسب إلى بناء مذهب في تدبير النزاعات الداخلية وتسييرها وتوجيهها.

ويرى الفيلسوف أن من أسباب عدم العناية بالتفكير في الحروب الأهلية تلك الشعبية التي تنامت لمفهوم «الثورة»، حد أنه بدا أكثر جدارة بالاحترام من مفهوم «الحرب الأهلية»، بما ساهم في تهميش هذا المفهوم.

وينبهنا المؤلف - بداية - إلى أنه لا يطمح في هذا الكتاب إلى بناء نظرية عامة في الحرب الأهلية، وبالبدل يعلن أنه سوف يكتفي - بالأولى - بفحص كيف تحضر الحرب الأهلية في الفكر السياسي الغربي، وذلك في لحظتين من تاريخه: في شهادات الفلاسفة والمؤرخين الإغريق القدامى، من جهة، وفي الفكر السياسي الحديث من خلال الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩)، من جهة أخرى. ويخبرنا بأن هذين النموذجين لم يؤخذا عفو الخاطر، وإنما يمثلان، في عرف المؤلف، وجهي عملة واحدة للأنموذج السياسي عينه الذي يتجلى، من ناحية، في التأكيد على أنه لا مفر من الحروب الأهلية، وفي الدعوة، من ناحية أخرى، إلى ضرورة استبعادها. ولئن هو كان لهذا الأنموذج ذي الوجهين أن يكون أنموذجا واحدا في الواقع لا مثنوية فيه، فلأن هذا يعني أن الحتميتان - ضرورة الحرب الأهلية وضرورة العمل على تفاديها معا - ترتبطان في ما بينهما البين برباط يسميه المؤلف «تضامنا سريا خفيا»، وهو «تضامن سري» يدعونا الفيلسوف إلى المبادرة بضرورة فهمه.

ويخصص الباحث هذه المحاضرة الأولى إلى تحليل مسألة الحرب الأهلية - أو باللفظ الإغريقي القديم Stasis - في تصور فلاسفة (أفلاطون، أرسطو) ومؤرخي (ثوقيديدس...) ومسرحيي (يوربيدس...) اليونان القدامى. ونهجه في هذا التحليل قائم على قولا «نعم» و«لا» لتحاليل إحدى أشهر الباحثات في الحرب عند الإغريق - الباحثة الفرنسية نيكول لورو (١٩٤٣-٢٠٠٣). والذي جعله يعود إلى هذه الباحثة ويستأنف العمل من حيث ما انتهت إليه أنها هي الباحثة التي طرحت السؤال الأساس حول «قيمومة» الحروب الأهلية: أين تقوم؟ والذي عندها جوابا عن هذا السؤال أنها تقوم في الأسرة أو في الأهل. فالحرب الأهلية صراع دموي تخاض رحاه في إطار قرابة الدم: شؤون القرابة شؤون الحرابة، وإنما القرابة مكمن الحرابة. لكن القرابة داء ودواء - ترياق - هي منبع الحرب الأهلية باستثارتها، وهي علاج للحرب الأهلية بإخمادها، وذلك بواسطة من تبادل النساء: القرابة بالزواج. إذ يتصالح الأهل بالتزاوج بين المتعاديين. ومن ثمة تستنتج لورو أن الصراع ينشأ من الداخل وليس يستورد من الخارج، ومن هنا ضرورة التفكير في الحرب الأهلية من داخل الأسرة. فإذا ما نحن وضعنا الأهل بوصفهم القرابة، فإنه ينتج عن ذلك أن الحرب الأهلية هي العلامة الدالة على ذلك وشرارته. ذلك أنه عندما نجعل من «المدينة» «بيتا» لنا، سرعان ما تلوح الحرب الأهلية في الأفق، وسرعان ما ينظم حفل للتصالح. هنا تقف نيكول لورو ليستأنف جيورجيو أغامبن التحليل: من اللافت للنظر تركيز الباحثة في تحاليلها على «البيت» Oikos - أو «الأهل» - وعلى القرابة الدموية Phylon، وبقاء مفهوم «الحرب الأهلية» Stasis عندها مخفيا في الظل مركونا (ص. ١٨). ولذلك يدعو الفيلسوف إلى كشف أمر الحرب الأهلية ببيان ما يتضمنه تحليل المؤرخة من «بذور تطوير ممكنة». وهو «يطور» نظرية نيكول لورو ببيان أوجه اشتكالها: حسب تلك الأطروحة، تقوم الحرب الأهلية أصلا في «الأهل». الأهل أصل دمار المدينة. لكن في الوقت نفسه الأهل هم من يعيد توحيد فُرقة المدينة. كيف نفسر هذا التناقض؟ كيف يكون سبب اندلاع الحرب في الوقت نفسه داعي علاجها وتصالحها؟ لهذا يرى الفيلسوف أن أطروحة لورو تحتاج إلى مراجعة من خلال إعادة طرح السؤال: أين «تقوم» الحرب الأهلية؟ وهنا يعود أغامبن إلى النصوص عينها التي قرأتها لورو لكي «يعيد» قراءتها، فيزحزح -وهو يستلهم مفهوم «الزحزحة» هذا من الفيلسوف الفرنسي

جاك دريدا- مكان قيمومة الحرب الأهلية من «الأهل» إلى «البين». إلى ما بين بين. أي إلى «العتبة» الفاصلة بين «البيت» و«المدينة»، بين قرابة الدم وبين المواطنة؛ بمعنى إلى تخوم هذين الموطنين. ذلك أن من شأن السياسة أن تدخل إلى البيت. موطن اللا سياسة بامتياز. فيعد الأخ أخاه غريبا، وسرعان ما يقتتلا (ص. ٢٢). وبهذا يمكننا الجواب عن السؤال: أين «تقوم» الحرب الأهلية؟ ذلك أنه لا تقوم الحرب الأهلية لا في «البيت» ولا في «المدينة»، لا في «الأهل». الأسرة. ولا في «الدولة. المدينة»، وإنما تشكل منطقة عازلة بين فضاء الأسرة غير السياسي وفضاء المدينة السياسي. وبتخطي هذه «العتبة» يتسيس الأهل (الأخ يقتل أخاه)، وبالعكس تخرج المدينة من السياسة (يؤاخي المواطن المواطن) لتصير أخوية أهلية. فالحرب الأهلية بهذا إنما هي «عتبة» بين «التَّسَيُّس» و«عدم التَّسَيُّس». وتعد المشاركة السياسية فيصل التفرقة بين «السياسة. المدينة. و«الطبيعة». الأسرة. وقد كان لاحظ المفكر والفيلسوف السياسي الألماني كرستيان ماير أنه حدث في القرن الخامس قبل الميلاد تحول دستوري مهم في اليونان: تَسَيُّس مفهوم المواطنة، بحيث أمست المواطنة. وليس المنزلة الاجتماعية لا ولا الحقوق والواجبات. هي المعيار السياسي للهوية الاجتماعية. وهو ما شكل إرثا مشتركا لكل تاريخ الغرب السياسي. هذا مع العلم أن التَّسَيُّس يجب أن يقع. حسب منظور أغامبن. في حقل التوتر بين «البيت» و«المدينة»، وقد تحدد بتقاطب ثنائي: التسيس/ عدم التسيس (ص. ٢٦). وفي هذا الحقل من التوترات، تشكل الحرب الأهلية «عتبة» من خلالها يتسيس الانتماء إلى الأهل (البيت) فيتخذ شكل مواطنة، وبالعكس لا تتسيس المواطنة، فتتخذ شكل تضامن أسري دموي.

والحال أن هذه الرابطة الجوهرية بين الحرب الأهلية والسياسة هي ما تشهد لصالحها مؤسسة العفو العام عن المتقاتلين. وعلى خلاف المحدثين، يراد في العفو العام نسيان الحرب الأهلية وعدم استخدام الذاكرة إيجابا في استعادتها من حيث هي ذكرى ممضة، وليس، كما يميل إلى ذلك المحدثون، حفظ ذكراها ومطاردة مرتكبي الجرائم في الحروب الأهلية. وفي هذا اختلف أهل القدامة وأهل الحداثة في تصور «الحرب الأهلية».

على أن ما يدعو إلى التأمل هو أن هذا «المحل» الذي وجد فيه التوتر لوقت معين كان دائما محل توازن هش. فخلال التاريخ الغربي اللاحق، تم النزوع إلى نزع السياسة عن المدينة بتحويل المدينة إلى بيت أو أسرة. مصالح اقتصادية. على نحو ما فعله «البيت الأوربي» الذي أصبح أشبه شيء يكون بأسرة لا بمجموعة دول سياسية؛ مما أدى إلى تغير شكل «الحرب الأهلية» إلى «حرب أهلية عالمية»؛ أي إلى إرهاب يقوم على سياسة «منح الموت»؛ أي على ما سماه الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤) «البيوبولتيكا». سياسة التحكم في حيوات ووفيات الساكنة. فعندما تستحيل «المدينة» «بيتا» اقتصاديا. العولمة الاقتصادية. تصير الحرب الأهلية هي أنموذج كل نزاع أو تدخل وقد اكتسى صورة ترعيب وترهيب. إنما الإرهاب. توزيع التقتيل. هو «الحرب الأهلية العالمية» الذي يجتاح في كل مرة هذه المنطقة من العالم أو تلك (ص. ٣١).

المحاضرة الثانية: الحرب الأهلية في الفكر السياسي الحديث (هوبز نموذجا)

اختلفت منهجية قراءة جيورجيو أغامبن لفكرة «الحرب الأهلية» في العصر الحديث عن قراءته لنفس الفكرة في العصر القديم، وذلك بحيث أن محاضرته الثانية أشبه شيء تكون بتعليق طويل النفس على «لوحة» غلاف الطبعة الأولى من كتاب توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) «اللفياتان». التنين (١٦٥١) والتي يستكنه المؤلف كنهها كأنه ضابط شرطة يحقق في أمارات جريمة. والذي يجده عند هوبز أنه في البدء تكون «الجموع» أو «الحشود»، تلك الجموع التي سرعان ما تلغي نفسها. وقد ملت حياة حالة الطبيعة الخطرة التي تجري تحت طائل الخوف من الموت الأحمر - العنيف -. في صورة «شعب» أجمع على تعيين ملك أو هيئة سياسية لضمان «السلم» و«الأمان». وهنا يحل «الشعب». وقد انعقد لفترة. نفسه ويعود إلى «جمع منحل»، بينما الملك/ أو الهيئة هي «الشعب»، ولا شعب «خارجها». وإذا ما أرادت هذه الجموع المتحللة أن تعين ملكا آخر أو هيئة بديلة، فاعلم أن ذاك مؤذن بالحرب الأهلية. والجموع والحشود في عرف هوبز «غير سياسية». ولا تستحيل «سياسية». شعبا بالمعنى السياسي الحقيقي. إلا لحظة تعيين الحاكم. وهي تلغي نفسها لتؤسس المدينة - السياسة-. وإنما الشعب ما أن يُعَيِّنَ مَلِكا - وقد أمسى هو الشعب- حتى يلغي نفسه بنفسه وينحل إلى «جموع» متحللة متفسخة. والجموع -غير السياسية- داخل المدينة -السياسية- أشبه ما تكون بالحيوانات المطعونة -من الطاعون- تحتاج إلى أن تُعالَج وإلى أن تُساس. وما كان الطاعون إلا استعارة للانقسام والفرقة والتحلل. فإذن، من شأن دولة هوبز. التي هي رمز الدولة الحديثة. أنها دولة تعيش «بلا شعب»؛ أي تعيش تحت طائل ما يسميه جيورجيو أغامبن «الأديميا» Adémie؛ بمعنى «غياب الشعب». وما «ذات» أو «رعية» أو «حاضنة» الحرب الأهلية سوى هذه الحشود المنحلة والجموع المتحللة. وإذا هي لم تكن الجموع المتحللة التي تعيش داخل المدينة «شعبا»، وإذا ما كانت هي «ذات» الحرب الأهلية و«حاضنتها»، فإن معنى هذا أن الحرب الأهلية تظل دوما أمرا واردا (ص. ٥٧). وهذا هو ما ينتهي إليه هوبز بلا موارية في الفصل التاسع والعشرين من كتاب «التنين» الذي يتناول فيه أمر «ما يضعف الدولة أو يجنح بها نحو التحلل».

لا تقوم الحرب الأهلية إذن ما دام رمز الجموع المتحللة. الثور التوارثي الأسطوري الضخم الذي صَوَّرَه الإله للنبي أيوب. ورمز السلطان. التنين الضخم الذي صَوَّرَه الإله لأيوب وذكر صراعه مع الثور الجامح. يتعايشان تعايش الحشود المنحلة مع صاحب السيادة. لكن حين تثور الحشود، فإننا نعود آنها بالدولة إلى «حال الطبيعة» ونرجع بالحشود المنحلة إلى الحشود غير المتحدة التي كانت في البدء تعيش على هذه الحال. وهذا يعني أنه ليس من شأن الحرب الأهلية والدولة وحال الطبيعة أن تتلاقى، لكن من شأنها أن تجتمع في علاقة معقدة. ذلك أن حال الطبيعة، كما يظهرها هوبز في كتابه «المواطن» (١٦٤٢)، هي ما يظهر من جديد عندما تتحلل المدينة؛ أي عندما تعيش حربا أهلية؛ بمعنى آخر: حال الطبيعة هي إسقاط أسطوري لحالة الحرب الأهلية على الماضي، والحرب الأهلية هي إسقاط لحالة الطبيعة على المدينة، فهي ما يظهر عندما نعتبر المدينة من وجهة نظر حالة الطبيعة (ص. ٥٨). إنما حال الطبيعة حرب أهلية في الماضي، وإنما الحرب الأهلية حال طبيعة في الحاضر.

أخيرا، لا شك عندي أن جيروجيو أغامبن فيلسوف متوسطي المزاج - نسبة إلى البحر الأبيض المتوسط -، بحيث أن حديثة لا يكاد يُمَلُّ، وكيف يُمَلُّ وهو حديث لا هو فيه برودة حديث فلاسفة الألمان في السياسة، ولا هو فيه تفاصيل وتفانين حديث المنظرين الأنجلوسكسون؟ والواقع أنه كلما قرأ المرء الفلاسفة الإيطاليين إلا ويشعر بحرارة الحوار الذي يجرونه من خلف ما يكتبون مع القارئ، فيُخَيَّلُ إليه أن المفكر الإيطالي. على شاكلة أمبرتو إيكو وجياني فاتيمو. لا يكتفي بأن يكتب له، بل يشعر بأنه يخرج من كتابه لكي يحضنه، وهو ما قد لا يفعله لا الألماني ولا الأنجلوسكوني. سادة النظرية والفلسفة السياسيتين في زماننا هذا.

ولا مهرب عندي من أن أقر بأن المرء إذ يقرأ ما يقرؤه مما يكتبه مفكرو الغرب عن «الحروب الأهلية»، فإن عينه تبقى شاخصة إلى ما يحدث في العالم العربي والإسلامي من «حروب أهلية»، وعما إذا كان بمكنة مثل هذه التحليلات والمفاهيم أن تسعفه في فهم ما يجري في هذا العالم. وقد يدفعه هذا إلى التساؤل عمّا إذا كانت دول عربية شأن سوريا واليمن والعراق والصومال وجنوب السودان ليست تعيش بالفعل ما سماه هوبز «حال الطبيعة»؟

الكتاب: «الحرب الأهلية»

المؤلف: جيورجيو أغامبن.

سنة النشر: ٢٠١٥.

دار النشر: Editions Points.

لغة الكتاب: الفرنسية.

عدد الصفحات: ٨٠ صفحة.

* أكاديمي مغربي

«اللاجئون: حل واقعي في مواجهة الكارثة الإنسانية» لسامي نعير

إغناثيو فيراندو *

تشهد أوروبا منذ سنة ٢٠١١ مع اندلاع الحركات الاحتجاجية والثورات في الوطن العربي - ما أطلق عليه اسم الربيع العربي- أزمة إنسانية لا سابقة لها في تاريخها تتمثل في توافد عدد كبير من طالبي اللجوء والمهاجرين إلى أبواب القارة العجوز هربا من ويلات الحروب والقمع والاضطهاد والمخاطر التي تحدق بهم في بعض البلدان العربية والإسلامية وعلى رأسها سوريا وأفغانستان والعراق. وقد ذهب بعض المحللين إلى أنّ هذه هي أكبر وأشد أزمة إنسانية تعاني أوروبا من وطأتها منذ الحرب العالمية الثانية مما جعلهم يصفونها بالكارثة الحقيقية. في هذا الكتاب يقدم الأستاذ الجامعي سامي نعير، كاتب فرنسي جزائري الأصل متخصص في العلوم السياسية ونائب سابق في البرلمان الأوروبي، وصفا دقيقا لقضية اللاجئين وتحليلا مفصلا للطرق التي اتخذتها أوروبا لمواجهتها مع اقتراح سبل الحل الممكن تطبيقها على المستوى الأوروبي للتصدي للكارثة ولاستيعاب ألوف اللاجئين الذين يرون في أوروبا بر الأمان وفرصة جديدة لحياتهم المنكوبة.

ينطلق الكتاب من إحصائيات صدرت في سنة ٢٠١٥ عن بعض الوكالات الأممية والمنظمات غير الحكومية المعترف بها دوليا تشير إلى أن السوريين المتوافدين إلى القارة العجوز في السنوات الخمس الأخيرة وعددهم ٣,٨٨ مليون نسمة يمثلون نسبة ٥١٪ من مجموع اللاجئين في حين أن الأفغان يمثلون نسبة ٢٠٪ منهم والعراقيون ٦٪ ويليهم في القائمة الإرتريون والباكستانيون والصوماليون، مما يعني أن العدد الإجمالي يناهز ستة ملايين نسمة وصلوا عن طريق البحر إلى السواحل اليونانية والإيطالية وعن طريق البر عبر طريق البلقان. وماذا فعل الاتحاد الأوروبي أمام هذا الكم الهائل من الناس؟ يقول سامي نعير بالحرف الواحد إن «أوروبا عاجزة عن الإجابة عن ما تشكله هذه الظاهرة من تحديات على الصعيد الجيو اقتصادي والجيو سياسي، فليس عندها رؤية استراتيجية على المدى الطويل ولا على المدى المتوسط في هذا الخصوص، وتكتفي بأن تتكفل الأسواق بتدبير الطلب الشديد للجوء بشكل «أوتوماتيكي» لأنها لا تريد أن تتحمل مسؤولياتها السياسية والأخلاقية تجاه اللاجئين. وأكثر من ذلك، فإن هذا العجز وغياب الرؤية الواضحة لمعالجة الهجرة والوقاية من الآثار السلبية المترتبة عليها جعل الحركات والتيارات المناهضة للأجانب تستفيد من هذا الوضع المتدهور وكأنها سرب من مصاصي الدماء.

يؤكد مؤلف الكتاب في تشخيصه للوضع الراهن أنه لانعدام رؤية أوروبية موحدة حيال تنقلات البشر والهجرات الحاضرة والمستقبلية عواقب وخيمة على الأنظمة الديمقراطية الأوروبية التي ستشهد لا محالة تزايدا للعنصرية واحتمال نشوب اشتباكات وحتى حروب داخلية ناتجة عن مشاكل متعلقة بالهوية الأوروبية ذاتها بسبب عدم اندماج الطبقات المنخفضة الفقيرة في النسيج الاجتماعي، فلم تعد التيارات الفاشية مجرد احتمال بل أصبحت حقيقة تلوح في الأفق في كل عملية انتخابية وفي كل حركة احتجاجية تشهدها القارة العجوز. إلا أن أولئك الذين يدعون إلى انتهاج سياسة الأبواب الموصدة أمام اللاجئين عليهم أن يأخذوا في الحسبان عاملين هامين أولهما أن الهجرات والتنقلات لن تتوقف لأن بلدان المصدر منغمسة في أزمات اقتصادية شبه مزمنة تدفع المواطنين إلى الهجرة، وخصوصا في القارة الإفريقية حيث من المتوقع أن يصل عدد سكانها إلى نسبة ٢٥٪ من مجموع سكان المعمورة في حلول سنة ٢٠٥٠ و٣٩,١٪ منهم في سنة ٢١٠٠، حسب التقرير الديمغرافي الصادر عن الأمم المتحدة. أما العامل الثاني، فهو أن الهجرات، مهما كان عددها كبيرا، لن تؤدي إلى اندثار بلدان اللجوء أو الاخلال بكثافتها السكانية وتلاشي هويتها بذريعة ما يسمى «ضغط» المهاجرين، بل العكس هو الصحيح إذ أن المهاجرين هم الذين يجب عليهم التأقلم في المجتمع الذي يستقبلهم والاندماج فيه والشعور بالإنتماء إليه. هذا ما يؤكده التاريخ وهذا ما حدث دائما، فإن بلدان المقصد هي أقوى وأعلى مقاومة، ولا يوجد وطن تغيرت هويته الذاتية نتيجة لاستقبال مواطنين جدد منحدرين من أصول أخرى.

يواصل الكاتب شرح إخفاق السياسات الأوروبية في معالجة ظاهرة الهجرة واللاجئين. فالخيارات الثلاثة الممكنة هي، أولا فتح الحدود بشكل كامل وإعطاء المهاجرين كامل الحرية للتنقل والعمل في أراضي الاتحاد الأوروبي، وثانيا إغلاق الحدود وبناء الجدران الفاصلة لمراقبة دخول اللاجئين، وثالثا انتهاج الطريق الوسط أي زيادة عدد المهاجرين واللاجئين المسموح بدخولهم إلى الاتحاد الأوروبي عبر اتفاقات مع بلدان المصدر وتشجيع سياسات التنمية المحلية وتسهيل تنقل اللاجئين وتحفيز خلق فرص العمل لهم. لقد مالت السلطات الأوروبية إلى الخيار الثاني المتمثل في تجديد إجراءات المراقبة على الحدود مع إنشاء مخيمات في بلدان ثالثة مجاورة لأوروبا، مثل تركيا، وفي بلدان المرور، خصوصا في اليونان وإيطاليا، ومنع دخول اللاجئين إلى الاتحاد الأوروبي وطرد وترحيل عدد كبير منهم، بما يعنيه ذلك من تجريم اللاجئين والتركيز على ما يشكلونه من خطر محتمل على أمن أوروبا. صحيح أن المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، بفضل نفوذها الكبير في المؤسسات الأوروبية، وجهت السياسة الأوروبية أمام ظاهرة اللاجئين في أول الأمر إلى سبل التضامن وراهنت على استقبالهم عبر نظام الحصص الموزعة بين البلدان المنضوية في الاتحاد بناء على القوة الاقتصادية وعدد السكان لكل واحد منها، إلا أن مجريات الأحداث السياسية وفقدان قسط كبير من ثقة الناخبين الألمان في ميركل مع نشوء الحركات العنصرية وكراهية الأجانب في ألمانيا والنمسا وفرنسا، ورفض بعض بلدان أوروبا الشرقية التي انضمت مؤخرا إلى الاتحاد لاستقبال اللاجئين في أراضيها، كل ذلك أدى إلى انقلاب الوضع رأسا على عقب. فبتاريخ ١٨ مارس من عام ٢٠١٦، أبرم الاتحاد الأوروبي والحكومة التركية اتفاقية وصفت باتفاقية العار والخزي إذ تنص بنودها على إبعاد كل اللاجئين الذين يصلون إلى الجزر اليونانية اعتبارا من يوم ٢٠ مارس ٢٠١٦ إلى تركيا مقابل سلسلة من الإجراءات الاقتصادية تصب في مصلحة أنقرة ومن بينها إعادة طرح انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي. فضلا عن كون هذه الاتفاقية معارضة لحقوق اللاجئين في الحماية ومخالفة للمبادئ التي كرستها أوروبا نفسها في اتفاقية حقوق الإنسان التي تحظر حظرا باتا عمليات الطرد الجماعي. إنها تدل إن دلت على شيء على فشل السلطات الأوروبية في مواجهة وتلبية طلبات اللجوء والهجرة. فبالرغم من أن الشعوب الأوروبية أعربت عن التضامن والتعاطف مع اللاجئين في غير واحد من بلدان المرور والمقصد، فإنّ السلطات السياسية تجاهلت المبادئ الإنسانية التي بني عليها الاتحاد الأوروبي والتي سمحت بإعادة بناء القارة العجوز بعد الحرب العالمية الثانية اعتمادا على روح التعاون والتضامن ومد يد العون للبلدان الفقيرة التي دمرتها الحرب تدميرا شبه كامل مما أدى إلى نزوح عدد هائل من المواطنين الأوروبيين وهي بذلك تكون قد خانت بنود اتفاقية جنيف عام ١٩٥١ المتعلقة بوضع اللاجئين. وكأن الشعب في واد والسلطات في واد آخر.

من بين نقاط القوة البارزة في هذا الكتاب النهج الدقيق والمفصل الذي ينتهجه الكاتب عند تقديم الأرقام والإحصائيات لإثبات آرائه واقتراحاته. فلا يكتفي الأستاذ سامي نعير بالإشارة العامة إلى الحقائق

والظواهر المتعلقة بطالبي اللجوء المتوافدين إلى أبواب أوروبا بل إنه يقوم بتوثيق كل المعلومات عبر اقتباس الإحصائيات الرسمية والمعلومات المنشورة في وسائل الإعلام والتقارير الصادرة عن المؤسسات والمنظمات العاملة في مجال الهجرة واللجوء. وبفضل كونه نائبا سابقا في البرلمان الأوروبي فإنّ له إلماماً واسعاً بدهاليز التشريعات الأوروبية وحتى وكالات الأمم المتحدة، ولإنه صحفي متمرس يكتب بشكل دوري في بعض الجرائد الأوروبية وخصوصا الإسبانية منها مثل جريدة «البابيس» اليسارية القريبة جدا من مواقف الاشتراكيين الإسبان، فإنّه على دراية واطلاع واسع بكل التطورات والمستجدات على الساحة الأوروبية، وبفضل احتكاكه ببعض المنظمات غير الحكومية العاملة في هذا المجال مثل منظمة العفو الدولي ومنظمة أطباء بلا حدود وانترمون أوكسفام فإنّه يستقي معلومات دقيقة عما يجري في الميدان. ومن الجدير بالذكر والثناء أن المؤلف لا يتطرق إلى حقيقة إلا ويثبتها ويوثقها بواسطة التقارير والإحصائيات الرسمية والاقتباسات المأخوذة من مصادر يعتد بها يوثقها في الهوامش، وذلك ما يجعل من كتابه أقرب إلى تقرير موثق يرتكز على أدلة وبيانات واضحة وليس مجرد عرض أفكار وآراء فضفاضة.

ومع ذلك يتبين للقارئ أنّ هذا الكتاب يعكس من الصفحات الأولى وحتى الأخيرة آراء المؤلف التقدمية التي تتماهى مع مواقف اليسار السياسي الأوروبي والرافضة للتيار المحافظ الذي أصبح سائدا في الأوساط السياسية الأوروبية في السنوات الأخيرة، فإن الأحزاب والحكومات اليمينية الأوروبية مستهدفة بقوة في أبواب الكتاب، ويوجه سامي نعير انتقادات حادة إلى حكومات أوروبا الشرقية والغربية على حد سواء. لا غرابة في ذلك، إذ أن المؤلف معروف بكونه مدافعا دائما عن حقوق اللاجئين في الإقامة والعمل في البلد الذي يفضلون البقاء فيه. ومن بين الحجج التي يدلي بها لإقناع القراء بقبول نظرياته ومواقفه الحجج الاقتصادية والاجتماعية المتمثلة في أن هجرة عدد كبير نسبيا من مواطني بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى الفضاء الأوروبي لن تضر باقتصاد بلدان المقصد ولن تشوه هويتها الثقافية والاجتماعية، بل العكس هو الصحيح، أي أن المهاجرين سيندمجون في المجتمعات الأوروبية وسيسهمون بصورة إيجابية في بناء مستقبل أوروبي أفضل. هناك من يعتبر هذه الآراء ساذجة وغير حقيقية، غير أن التاريخ أثبت لنا، حسب قول المؤلف، أن المجتمعات التي استقبلت عددا هائلا من اللاجئين والمهاجرين واصلت المسير نحو التقدم والازدهار، كما حدث في الولايات المتحدة على سبيل المثال.

ومما يلفت نظري عند قراءة أبواب كتاب سامي نعير أنه يستعرض بدقة بالغة ما هي البلدان غير الأوروبية التي استقبلت اللاجئين، مع إدراج قائمة تبين لنا عدد المهاجرين المقيمين في كل دولة على حدة، وتتصدر القائمة تركيا وبعدها باكستان ولبنان وإيران، إلا أنه يمر مرور الكرام على البلدان التي لا تستقبل أحدا من اللاجئين، إذ يكتفي بإشارة عابرة إلى بلدان الخليج (يذكر منها قطر والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية والكويت والبحرين). فخلافا للمعلومات

المفصلة والتحليل المعمق للمواقف الأوروبية تجاه ظاهرة اللاجئين، لا نجد شيئا عن مواقف دول الخليج حيال هذه الظاهرة التي تمس شعبا قريبا لغة وعرقا وثقافة. ومن المعقول أن تعتبر هذه المقاربة التي ينتهجها المؤلف نوعا من الإفراط في النقد الذاتي وتجاهلا لمسؤولية الآخرين عن مواجهة هذه الكارثة الإنسانية العالمية وتخفيف عواقبها الخطيرة على ألوف اللاجئين الذين يتعرضون للموت للوصول إلى بر الأمان. وربما كان من المستحسن لو تناول المؤلف بشيء من التفصيل مواقف دول الخليج وكيف كانت ردود الفعل والإجراءات التي اتخذتها أمام هذه الظاهرة المؤسفة.

ولعل أهم باب من أبواب هذا الكتاب هو الباب ما قبل الأخير المخصص لتقديم الحلول الواقعية للتعامل مع ظاهرة الهجرة واللاجئين والذي يحمل عنوان «جواز مرور للاجئين». ذلك أن تحليل الوضع وتشخيصه ليس بأمر جديد فبالإضافة إلى التقارير والإحصائيات الصادرة عن الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية من أمثال منظمة العفو الدولية وغيرها وكل المعلومات المتداولة في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة، هناك دراسات علمية سابقة يعتمد عليها سامي نعير مثل دراسات الأستاذ الفرنسي آلين موريس وكتابين سابقين لسامي نعير نفسه حول قضية اللاجئين والمهاجرين هما «ويأتون إلينا... الهجرات في أزمنة معادية»، الذي صدر عام ٢٠٠٦ في برشلونة، و«أوروبا المختلطة. الهجرة والمواطنة والتنمية المشتركة»، الذي صدر عام ٢٠١٠ في برشلونة أيضا. إن الحل الذي يقترحه سامي نعير يعتمد على خمس نقاط هي: ١. بالنسبة للاجئين السوريين والعراقيين والأفغان والآتين من كل المناطق التي يوجد فيها تدخل عسكري خارجي، بعد قبول طلب اللجوء، يجب إعطاؤهم وثيقة سفر تسمح لهم بالتنقل الحرّ في أراضي كافة البلدان الأوروبية إلى أن يجدوا بلدا مستعدا لاستقبالهم؛ ٢. يجب على المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين إعداد قائمة بالبلدان التي تتطوع لاستقبال اللاجئين وتقديم جواز مرور لهؤلاء الذين يرغبون في التوجه إلى هذه البلدان؛ ٣. يجب مساعدة بلدان الحدود التي تستقبل اللاجئين بشكل مؤقت لإنشاء منشآت ملائمة لذلك؛ ٤. يجب إقامة ممرات إنسانية آمنة تحت حماية القوات الأوروبية والأممية لتسهيل خروج اللاجئين من بلدان النزاعات والحروب؛ ٥. يجب مساعدة بلدان المرور في مكافحة العصابات التي تستغل الوضع المتدهور للاجئين والمهاجرين.

من الجلي أن هذه الحلول قريبة جدا من روح الاتفاقات والمعاهدات الدولية بشأن حقوق اللاجئين ابتداء من اتفاقية جنيف عام ١٩٥١، وأنها تندرج في إطار النموذج الفكري السائد في أوساط السياسات التقدمية التي تبتعد عن كل ما له صلة بالعنصرية وكراهية الأجانب والحركات المتطرفة التي اجتاحت القارة العجوز عامة والأقطار الشرقية منه خاصة. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو هل يمكن اعتبار هذه الحلول واقعية فعلا كما يدعي المؤلف، خصوصا في السياق السياسي الأوروبي الحالي الذي تعلوه النزعة إلى عدم التضامن مع أناس يفرون من أوضاع صعبة جدا تتحمل أوروبا جزءا من المسؤولية في إحداثها؟ أو هل هذه الحلول المقترحة أقرب إلى المواقف الساذجة التي تتعذر ترجمتها على أرض الواقع؟ تتوقف الإجابة عن هذا السؤال على النهج الذي سوف تنتهجه أوروبا في المستقبل القريب، إما نحو الانفتاح وإدماج اللاجئين في نسيجها الاقتصادي والاجتماعي بما يعنيه ذلك من فرص التقدم والرقي الحضاري وإما نحو الانغلاق والتطرف الذي يؤدي لا محالة إلى الإفقار الثقافي والاجتماعي والتخلي عن المبادئ التي انبثق عنها الاتحاد الأوروبي.

وفي الختام، لا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب يشمل جوانب إيجابية للغاية فإنه يصف ظاهرة اللاجئين والمهاجرين المتجهين نحو القارة العجوز بطريقة علمية دقيقة مع وابل من المعلومات والإحصائيات الموثقة، كما أنه يقدم تشخيصا واقعيا وتحليلا مفصلا للحقائق المتناولة فيه، مما يسمح بتوعية القراء من خطورة كارثة اللاجئين وضرورة مواجهتها بجرأة وعزم. إلا أن هناك عدم توازن بين هذا القسم الإخباري والتحليلي والقسم المكرس لاقتراح الحلول، فمن المؤكد أن أكثر من قارئ كان بودّه قراءة المزيد من التفسير والتوضيح حول طريقة تطبيق الحلول المقترحة وسبل تفعيلها في السياق السياسي الأوروبي الحالي.

الكتاب: «اللاجئون: حل واقعي في مواجهة الكارثة الإنسانية».

المؤلف: سامي نعير.

الناشر: دار كريتيكا، برشلونة، ٢٠١٦.

اللغة: الإسبانية.

عدد الصفحات: ١٨٨ صفحة.

* أستاذ وباحث في جامعة قادس (إسبانيا)

«النخبة الفكرية والانشقاق».. لمحسن الموسوي

يونس البوسعيدي *

في مايو من العام ٢٠١٥م، وهدية من مجلة الدوحة الثقافية، صدر كتاب «النخبة الفكرية والانشقاق»، وهذا عنوانُهُ العريض، بينما كان عنوانه الفرعي «تحوُّلات الصفوة العارفة في المجتمع العربي الحديث» للدكتور محسن الموسوي، ويتضح أن العنوان الفرعي أخذ مهمة إيضاح الكتاب أكثر من العنوان الأساس، الذي أخذ مهمة العنونة باقتدار، مِنْ حيث الاختصار والإلماح، وبعد انتهائي وتمتعي بقراءة الكتاب، وجدْتُ أنه صورةٌ ذات خط تاريخي لما قد أقول عنه «استثقاف المثقف» أي ينابيع الثقافة الواقعية للمثقف، والتي رشفها مِنَ المتغيرات التي عايشها المجتمع العربي، وبدا لي أن هذا الكتاب أخذ طابع (المقالات المسترسلة)؛ فهو لم يكن ذا فصول وأبواب، بل تكون مِنْ فصلين فقط؛ الفصل الأول ذو عنوانٍ أو مقدمة طويلة، هكذا قد تكون بعنوان «تحولات الأدوار: النخبة الفكرية والدولة العصرية»، بينما الفصل الثاني وكان لُب الكتاب وأساسه، واحتوى على اثنين وعشرينَ عنوانا «متقاربة متباينة»؛ بمعنى أنَّ الرابط الأساس فيها قد يكون خفيا لبعض القراء، لكن بفعل امتداد قراءة الكتاب، يتضح أنه مقالات يربط بينها العلاقة بين المثقف والسلطة، أو القضايا التي طرأتْ على المستويات السياسية والاجتماعية في كثيرٍ مِنْ الأحيان، وتعامل المثقف معها، تنظيرًا، أو نموًا على مستوى الفكرة والتفكير.

الكتاب في أحايين منه تذبذب في صورة رسم المثقف، فكان يرسمه في عناوين من الفصل الثاني بصورة مُبْهِجة، خصوصا في الحديث عن مشروع النهضة الذي قادَهُ بعض المثقفين العرب، وعلاقتهم السياسية بعد ذلك بالنظم السياسية التي تنشأ، وإنْ لم تكن تلك الصورة المبهجة بألوان فاتحة كليًا، فمثلا كان الكاتب ميالا لمنهج وتاريخ طه حسين الفكري، وإطلاقه صفة «القلة المثقفة» على ما يراه «فئة فاعلة في تكوين القلة المثقفة»، لكنه لا يحاول استرجاع الزمن، رغم الخط التاريخي للكتاب، وتفهم ضبابية الموقف والتحولات يومها، ومحدودية الأدوات الفكرية وملَكَة الاستشراف التي قد تكون عند البعض من المثقفين دون ذلك؛ مما يعني أنَّ انحياز د.محسن الموسوي لـ«المعذبون في الأرض» كما يصفهم طه حسين، هو انحياز قد يُساءلُ عنه في رسمه لصورة المثقف التاريخية، انجرارا لصُور أخرى رسمها له في عناوين أخرى مثل «المثقفون صُورهم في الحياة العربية، القلة المنقذة، المنفي والطريد، الخيانة، التحزب، الشهود».

وبعد إنهاء قراءة أولى لفصول عديدة مِنْ هذا الكتاب، و«كشطاتي» بقلم رصاص على هوامشه -وهي عادةٌ أستلذها- قرأتُ عنَ الكتاب في الإنترنت، كانت الفكرة عن الكتاب تكادُ تكون متقاربة إنْ لم تكن متشابهة، لكني توقفْتُ عند «الاختيار الثقافي الترويجي» للكتاب، أي العبارة التي أُختيرتْ لتُروج للكتاب للقارئ أو المتلقي أو «المستهلك»، فكُتِب عنه: «يُحاولُ هذا الكتابُ تحديد العلاقة بين المثقف العربي والدولة العصرية منذ نشأتها الحديثة، مُستَشْهِدًا بنصوص المثقفين العرب وتطلعاتهم وتحالفاتهم، متخذاً من طلائعيي عصر النهضة وبعض رواد الخطاب الإحيائي منطلقاً لتقديم تصور لتلك العلاقة المتوترة»، رغم أنه مِنْ خلال قراءتي للكتاب أتحفظ قليلا على كلمة «المتوترة»؛ كوني أعتبر أن التغيير الفكري للمثقف حالةُ ملحة، وصُورَةٌ ضرورية، في ظل التغير المجتمعي؛ لأنَّ التشبث بالفكرة الواحدة يقاربُ حالة الجمود، وهو ما يُخالف نمط الثقافة الطبيعي. ثم يذهبُ التعريف بالكتاب قائلا: (وإذا كانت الدولة العصرية قد حققت في بدايات نشأتها في ظلال الصراع مع الاستعمار شيئاً من طموحات الفئة الطليعية، فإن تحالفات تالية وقراءات سيئة ومشوهة للتاريخ حفرت في جذور العلاقة وأوجدت أكثر من «خندق مَصْلحي» منذ نهاية الأربعينيات، وجرى إعلاء خطاب على حساب آخر، وادعى ذلك الخطابُ أو مثيلهُ الأحادي أحقيةً مطلقةً تصادر الرأي الآخر وتنفيه؛ أي أنَّ حالة العلاقات «الأفكارية الثقافية» -كي لا أنسب الحالة للإنسان بل للفكرة- لا تزال تتكرر كأنها بيولوجيا، وهي حالة في عمومها تدعي صحة الفكرة والتفكير، وقوة الاستشراف والحدْس، ونفْي الآخر «المفكر الذي قد يكون هو مصيبا كليا أو بنسبة ما -مع العلم بأن الجميع يفعل ذلك- وينفي فعل النفي»، وهذا ما أوافق عليه المُعرفَ أنه «لا بد أن تزخر الثقافة العربية بعلامات العصيان والتمرد، أو الانكفاء على الذات، والمراوغة، ولعل خطاب المَهاجر يُفْصح عن مشكلات أوسع جرت معالجتها، لا على أساس امتيازها، وإنما على أساس إفصاحها عن داخل منتهَك مريض»، هذا التعريفُ مثل عندي صورةً واحدةً مِنْ مجموعة صُوَر «مونكرومية» للمشهد التفكيري للنُخب المفكرة، وتحولاتها «التفكيرية» إزاء التطورات المجتمعية، وهذا بدا لي مِنْ خلال مراحل تاريخية، ومدى تأثره بمراجعاته الفكرية، وكذلك نشأته الثقافية، فأنا في رأيي أن الغرب العربي قادر على الاتزان وتقبل الجديد الغربي في الفكر أكثر مِنَ الشرق العربي الوجداني، ولا تزال الدلائل والشواهد قائمة حاضرة منذ ابن خلدون «كاسم سريع الحضور في البديهة» إلى اليوم، مقابل «أركون» مثلا، وهذه الحالة الفكرية تحتاج دراسة مستقلة، رغم أني لا أنفي مطلقًا الحالة الفكرية في المشرق، وقد يكون في كثير مِنْ جوانبها أكثر إضاءة وإشراقة من الغرب العربي.

الكتاب حاول أنْ يقرأ العلاقة بين المثقف وكينونة الدولة والسُلطة، و«السياسية في معظمها»، مستشهدًا بأسماء ونصوص ثقافية مرت على الذاكرة العربية في ظل التغيرات التي شهدَتْها المنطقة العربية والتحولات الفكرية، كمخاضات التغيرات السياسية -كسقوط الدولة العثمانية، والثورة الفرنسية- وعلى العموم، أؤكدُ أن هذا الكتاب يُمكن أنْ يمثل كتاب تاريخ أولي لتاريخ التفكير النخبوي العربي، في علاقته مع الدولة، أو السُلطة، وما قد ينتج ويفيدُ فيه هذا التفكير، مِنْ تحليل واستشراف مستقبلي «للمثقف الآني»، واستشراف أفكار جديدة للدولة العصرية، كون المثقف هو المنظر الأول للسياسي، مالك زمام الدفة في الدولة.

منذ البدء يُقرر الكاتب أن الآخر هو «الغرب»، دونَ تحديد ماهية أو جغرافية الغرب، أو لماذا الغرب، ولم أجد صعوبة في تأويل أن الغرب هنا هو أوروبا المُسْتَعْمِرة، ولماذا المُسْتَعْمَرةُ فقط وليس أوروبا أو كل أوروبا؛ ذلك لأن الآخر الثقافي هنا لم يكُنْ مستعمِرًا عسكريًا فقط، بل كان ثقافيًا كذلك، وما فرنسةُ الجزائر عنا ببعيد، لكن الكاتب يعودُ لتعريف الآخر صراحةً بعد ذلك في متن الحديث حين تفكك الدولة العثمانية ويومضُ بهذا الحدث كمدخل تاريخي لتحول مَنْ يُصنفُهم بـ«الصفوة العارفة» أو «النخبة الفكرية»، وتكون مصر حاضنة سياسية وثقافية جديدة، وهجرة النُخب العربية إليها، وتعاون هذا «الآخر» الأوروبي المستعمر -اضطرارا- مع هذه النُخب، وقد أوردَ لذلك أمثلةً بعَيْنها مثل «اللورد كرومر» الذي دعا إلى الاستعمار

مُدججًا بالتغريب، و«القس دوجلاس دنلوب» الذي دعا كذلك إلى تغريب التعليم في مصر، وتتشكل لاحقًا صورة لهذا «الآخر»، فهو يترصد مرحلةً ليُفعلَها بصورة أخرى ثانية، كان ترصد فرصة انهيار الدولة «الأكبر» حينها وهي المرحلة التي تميزتْ بالقلق الوجودي لثقافة «الشرق» بانهيار الدولة العثمانية، ليُعيد تفعيلها مرةً أخرى بقلق مرحلة مِنْ جديد بتأسيس دُول وفْق مُراده، ولأنني مشغوفٌ باستجلاب التاريخ من أوراقه الصفراء وإسقاطه على الحاضر، فإنني ألفتُ النظر إلى القيام بعملية قياس ومقاربة ومقارنة بسيطة، بين ما تم سابقا وما يتم الآن من عمليات إقلاق مراحل وكيانات سياسية بثقافتها لإنشاء مراحل قلقة أخرى بثقافة مغايرة بكيانات سياسية مغايرة، لمصلحة هذا الغرب.

ولعلَّ الكاتب حين يرى أن تشكلَ النخب الثقافية العربية كان بين الرغبة في الغرب والردة عليه، كان في مخياله يستحضر بعض الأمثلة التي تقفز للبال كالطهطاوي من مصر مثلا، أو ربما جماعات المهجر الأدبية، وإنْ لم يتشكل بعضها في الغرب الذي ذكرتُه أعلاه مثالا، ويذهبُ في تأريخ النهضة الفكرية العربية إلى ما بعد سقوط الدولة العثمانية، وهنا أتعمدُ تذكير الكاتب أن بعض الدول لم تخضع للسيطرة العثمانية، ولكنه لا ريب سيردُ علي وهل خرج منها نُخَبٌ ثقافية بالمستوى المشهور؟ في الحين نفسه كذلك يرى الكاتب أن تفكك الدولة العثمانية شكل حاضنةً لتَكوين نخب ثقافية «كالكواكبي والأفغاني» وذلك بالدعوة إلى الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية كما دعا «نجيب عازوري» مثلا، وبالهجرة إلى مصر إبان مرحلة التفكك، وقيام مصر كحاضنة ثقافية عربية جديدة، والتي لم ترَ القوى الأوروبية الاستعمارية بُدا من التعاون معها في تحالفات معروفة قادت إلى سلسلة من الأحداث السياسية كالثورات وتقسيمات الحماية البريطانية والفرنسية.

وفي تلك الفترة، بدتْ العلاقة ضبابية الأفق بين النخب الفكرية العربية والآخر «الأوروبي المستعمر»؛ فمثلا رأى جمال الدين الأفغاني في ذلك الآخر أنه مُقوضٌ للحضارة العثمانية ومهددٌ للمستقبل، فدعا مع الكواكبي ومحمد عبده ورشيد رضا لتشكيل الجامعة الإسلامية، ومع تلك الدعوة كانوا متفقين على أن الاستبداد هو الذي قاد «الخلافة العثمانية» إلى وضعية «الرجل المريض»، لذلك لم يُجمعوا على مؤازرة العثمانيين ودولة السلطان، وأتساءل هنا هل كان هذا دافعا أو الشرارة الأولى للكواكبي لتأليف كتابه الشهير «طبائع الاستبداد» كما أني أعودُ وأستجلبُ التاريخ متمنيا أنْ أستكنهَ فقه المصطلحات في وعيهم حين نقول خلافةً واستبداد، متعجبًا من يقينهم ونظرهم في دعوتهم إلى جامعة إسلامية في تلك الفترة التي كانت خصبة وموارة بالدعوة إلى القوميات وليس إلى التجمعات، وربما كان ذلك قمة من قمم الوعي واليقين بالمبادئ، ويقينا منهم أن الخلل كان في ممارسات فاسدة مَنشؤها كيفية العمل بنظام الحكْم وليس الدينُ أو نظام الحُكْم نفسه، وهنا أنا لا أتعجب إذا كان الشرخ الأول في انشقاق تلك النُخب العربية المثقفة جاء من النظر في علاقتها مع الآخر، وكيف التعامل مع ثقافته الواقعية في ثقافتهم، مِنْ

حيث ما هو ديني وسياسي، وهل يُمزَجُ بينهما كما ارتأى الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، وتبعهم في ذلك «الطهطاوي» إنما بفكر آخر وهي فكرة «الملكية الدستورية»؟ أم بفصلهما كما روَّجت المجموعة العلمانية التي نشأت وصادمتهم؟ ومثَّل هذه المجموعة في تلك الفترة: قاسم أمين، وفرح أنطوان، وشبلي شميل، وإسماعيل مظهر، وسلامة موسى، والزهاوي، والرصافي، فرأتْ أنْ تتعامل مع «ثقافة الآخر» بوصفها «غير مقطوعة عن روح العصر»، لكن لا بُد مِنْ تطويرها بشيءٍ مِنَ المنظومة الفكرية الغربية المتلائمة مع رُوح العصر، وبهذا نادى سلامة موسى وشبلي شميل والريحاني إلى سحْب النظرية الدارونية الشهيرة «نظرية النشوء والارتقاء» إلى ساحة السياسة وعلم الشريعة والاجتماع، زاعمين وجوب تطوير فكر وأدبيات الشرق، المتهم لديهم بالثبات والركود وتطبيق مشروع التغيير عليه، وفق نظريات التغيير للسُنَن الجديدة، وفي تلك الأجواء قاد «جبران خليل جبران» لواء التغيير الأدبي للثقافة العربية والنهل مما رآهُ تطورَ الثقافة الغربية، فجاء بكتابه «النبي»، وفعلتْ كذلك جماعة «الديوان» المصرية التي أخذتْ عن الرومانسيين الإنجليز حلم التغيير (١)، وهذا الحلم لم يكن تهويمًا أدبيًا فقط (٢)، بل تعداه إلى الفكر السياسي والاجتماعي أو «الاجتماعي السياسي»، وإنْ تدرج في نشوء ونمو فكري طبيعي (٣) -كما أراه كالطبيعة البيولوجية- حتى وصلتْ من بلاد المغرب العربي إلى «الأرستقراطية الفكرية» كما نظر لها المفكر الشهير «علال الفاسي» والتي يجمع فيها بين إسلامية السلف وعروبته، وبين الحرية الأوروبية، جاعلا «ديمقراطية» الغرب روحًا محدثةً لـ«إرادة الشعب الواعية»، بصفتها أساسًا أولا لأنظمة الحُكْم الغربي، معترفا بأن هذه الديمقراطية سبيل فكري ومنهج حياتي يمكنان المجتمع الإسلامي في حاضره مستندًا إلى ماضيه دون محاكاة عمياء (٤)، ويبدو لي أنَّ التي يُسميها «علال الفاسي» بـ«الأرُستقراطية الفكرية» مثلت نتاج التخمرات في التحولات الفكرية المسلمة والعربية على المستويات الدينية والمجتمعية والفكرية والسياسية، وهي فكرٌ أو أفكارٌ «غربيةُ» الأصل، وكأن جذورَها وآلياتها تعودُ بنا لأُولى الجذور الأولى في التقلبات الفكرية العربية، وأزعمُ أن «الفاسي» تأثر بحالة الاستعمار الأوروبي على بلاد المغرب العربي، وما جلبَهُ هذا الاستعمار مِنْ نمط (شديد العقلية) في التفكير، حاولَ الفاسي تفصيله على جسد المجتمع العربي، لذلك فإن د.محمود الموسوي يرى أن هذا التفكير الفاسي إحالةٌ مِنْ أفكار «سينتْ بوف»، و«ماثيو آرنولد»، ببعض الاختلافات التي قد تكون في القشور فقط، وبهذا فالتحول الفكري هنا، هو تحول يُذكرنا ببدء تحولات الفكر العربي بعد انحلال الدولة العثمانية ومقارباتها ومقارناتها بالفكر الغربي.

××××××××××

الهوامش:

(١) وجب التنويه هنا بأن حتى محاولات التغيير الأدبية وجدتْ مصادمَات مع بيئتها، فمثلا لم يُغْرَ شبلي شميل بتغيير التعابير والأساليب الأدبية، ما دام الوضع السياسي قائمًا على الاستبداد لا الديمقراطية، ونظر للعلاقة بين المثقفين والحكومات إلى العلاقة بين التفكير الحر والاستبداد.. قائلا: إن «سر تخلف الشرق يعود لقتل الأفكار وإفساد الأخلاق وموت الكتاب».

(٢) أستدركُ هنا الخط الزمني في تذكير أن الأدب -بعيدًا عن تقسيماته النمطية- ظل يُلاحق التغييرات السياسية، واستشهد الكتاب كذلك بأعمال لنجيب محفوظ مثل «اللص والكلاب» و«الشحاذ»، وقد رأى الكاتب أنهما موجهتان إلى «وريث المستعمر»، وهي الرؤية نفسها التي رآها الكاتب في نص محمود درويش «خُطب الديكتاتور الموزونة».

(٣) الغريب أنَّ هذا التطور واجهه شك وتحفظ مِنَ المثقفين أنفسهم؛ فمثلا كان «شبلي شميل» يتوجسُ مِنَ المفكرين المنظرين، في حين أن النظام السياسي قائمًا على الاستبداد، فكأنه أرادَ أنْ يكون الوعي والتنوير واقعا مباشرا على الأرض، فصار جدلٌ في ماهية المثقف، تطرق له « طه حسين» في كتابه «المعذبون في الأرض».

(٤) وإنْ كان المجال لا يتسع لمراجعة رؤية المفكر علال الفاسي في هذه السطور، لكن يجب التنويه بأن الديمقراطية الغربية -في حسناتها- تتشابه مع النظم الإسلامية الصافية التي قعدتْ الحُكْم، وإنما نال نُظمنا الاسلامية من التنازع «السياسي الديني» ما شوهه، وموه على الناس أنه نظام غير شُورِي «ديمقراطي»، وعلى كُل فقد رد على آراء علال الفاسي بعض المفكرين مثل علي الوردي ومحمود السيد...وغيرهما.

- الكتاب: «النخبة الفكرية والانشقاق».
- المؤلف: محسن الموسوي.
- الناشر: مجلة الدوحة، ٢٠١٥.

* شاعر وكاتب عُماني

«تاريخ التصوف الغربي».. لماركو فنيني

عزالدين عناية *

تُعدّ الأعمال الصادرة باللغة الإيطالية حول تاريخ التصوف في الغرب قليلةً، وإن تعددت الأعمال التي تتطرق إلى شخصيات وتجارب روحية محددة. ومن هذا الباب يُعدّ كتاب الإيطالي ماركو فَنّيني (من مواليد ١٩٤٨) المختص بالظواهر الروحية مرجعا لا غنى لدارسي ظاهرة التصوف في الغرب، بقصد الإحاطة بأهم منابعه ورواده وصولا إلى تطوراته في الفترتين الحديثة والمعاصرة. مؤلف الكتاب فَنّيني مترجم قديرٌ أيضا، سبق وأن نقل من اللاتينية والألمانية إلى الإيطالية كافة أعمال المعلم إيكهارت. ناهيك عن أعماله الصادرة في المجال مثل: «دين العقل» (٢٠٠٧)، «التصوف والفلسفة» (٢٠٠٧)، «التصوف في الأديان الكبرى» (٢٠١٠)، «قاموس التصوف» (٢٠١٣).

يقسّم فَنّيني كتابه المعني بتاريخ التصوف في الغرب، من الإرهاصات المبكرة في العهود القديمة حتى الراهن الحالي، إلى ثلاثة أقسام تأتي معنونة على النحو التالي: المنابع الإغريقية، المسيحية، والعالم المعاصر. ويصدّر الأقسام الثلاثة من الكتاب بمقدمة مطولة تتناول قضايا على صلة بالتصوف مثل: اللاهوت وعلم النفس والفلسفة. مبينا أمام تعدد معاني التصوف وتبدل مضامينه من حقبة إلى أخرى، أن مسار التاريخ فقط هو الكفيل بتحديد معاني مفردة «التصوف» ودلالاتها. فالكلمة في أصلها الإغريقي -mistica- والتي أتت صفة لا اسما، عادة ما أُلحقت بكلمة اللاهوت. وفي معناها في تلك اللغة هي علمٌ للربوبية وخطابٌ حولها، صامت، مغلق. ولكن ليس بالمعنى الباطني، ففي الأصل الإغريقي، الإفلاطوني والأرسطي، نشأت المفردة في مقابل الأساطير وفنطازيا الشعراء عن الآلهة. ويُعدّ في هذا الطور المتقدّم الذي يؤرخ له فَنّيني نصُّ أفلاطون -بارمنيدس- نصَّ التصوف بامتياز، لما حواه من إشارات روحية وذوقية. فالتصوف كما لاح في تلك المرحلة المتقدمة هو تجربة التوحد، بل لنقل تجربة الروح والتوحد في الروح، إنه قائم بالفعل على تلك الجدلية كما يقول فَنّيني. حيث يدرك الصوفي أن إرادته هي إرادة الله، وفكره يغدو فكر الله، وبالتالي أناه تصير أنا الله، ولكن ليس بمعنى -البانثييزم-، أي التوحد في الربوبية، وإلغاء الفصل بين الذات البشرية والذات الإلهية. لذلك غالبا ما جاءت لغة الصوفي متداخلة مثقلة بالتضارب، ولكنها في نهاية المطاف تغرق في الصمت، وهو ما لا يعني أنه لا يمكن الإفصاح عن تجربة الروح عبر منطوق اللغة.

مع ذلك يبقى التصوف كما يرى فَنّيني قناة أثيرة خاطب الرب بواسطتها، وبشكل رائع البشر، مانحا إياهم أحوالا تجلت في عطايا ومعارف وضروبا من الوحي الخارق. ولكن المسألة الدقيقة، والمهمة العسيرة، ضمن هذا المسار، تتلخص، وفق فَنّيني، في فرز التصوف الصادق من التصوف الزائف، في تجلّي الرب أو في تلبّسه بظواهر -طبيعية- أو شيطانية. وصحيح يتخلل التصوف الإيمان، لكن ليس بوصف التصوف اعتقادا بل معرفة للروح، ومعراجا، فهو دائما تجربة للمطلق في الحاضر، هنا في الواقع في عالم الشهادة. لذلك يعني التصوف بالأساس معرفة الذات، معرفة العمق الحقيقي للروح، وهو ما تلخص في ذلك القول المأثور «من عرف نفسه فقد عرف ربه». في القسم الأول من الكتاب، المعنون بـ«المنابع الإغريقية»، يتناول فَنّيني العالم الهيلنستي، منطلقا مما يوحي به التقارب الدلالي على مستوى اللغة بين كلمتي -mistica- و-mistero- (التصوف/الإبهام). مبينا أن التقارب بين الكلمتين على مستوى اللغة يغدو تباعدا على مستوى المضمون، وبالتالي لا ينبغي المكوث طويلا عند ظاهرة التشابه الإيتيمولوجي/الاشتقاقي على أمل بلوغ المعنى الأصلي للكلمة وطمعا في الإحاطة بفحوى التصوف. معتبرا ملحمة الإلياذة الإغريقية معينا أوليا للنظر الروحي والإيحاء بالقوة والملحمية. وإن يشاطر ماركو فَنّيني الباحثة سيمون فايل في الإقرار بأن الإلياذة تحوي عمقا صوفيا وخيطا روحيا رقيقا، فإنه لا يزعم أننا مع الإلياذة في حضور تجربة للتصوف بمعناها الراقي (وحدة الروح)، لكن هناك سائر العناصر الممهدة لذلك والأرضية المناسبة للحديث عن التجربة الروحية. ففي النص الشعري الملحمي، وبعيدا عن المباشر التعددي لمختلف الآلهة واللغة التجسيمية والتشبيهية الطاغية، ثمة تطلّعٌ لأفق سام في الجمال وفي الربوبية بوصفها ضرورة مطلقة، أو لنقل إلى ألوهية غير مشخصنة. مع وعي في الإلياذة بالوحدة الجامعة للكلّ، ينكشف من خلالها حجاب الضرورة الإلهية. ودائما ضمن ملاحقة منابع التصوف في أصول الفكر الإغريقي نلحظ كيف يجد إيكهارت في هيراقليطس (نهاية القرن السادس ق.م/بداية القرن الخامس ق.م)، المعلّم للحقيقة قبل أن تظهر في الإيمان المسيحي. قولته الشهيرة تبدو آسرة لإيكهارت: -مصغيا إلى اللوغوس وليس إلى ذاتي، من الصواب الإقرار بأن كل شيء واحد-.

لكن أصول التصوف، كما يتبين لفَنّيني، تبدأ في التبلور بشكل واضح مع الفلاسفة الكلاسيكيين، أساسا مع إفلاطون تلميذ الهيراقليطي كراتيلوس، أي قبل الانضمام إلى صفوف مدرسة سقراط. حيث نلاحظ في النص الإفلاطوني التعالي المطلق لله، وهو ما يطلق عليه -ثيوس-، حيث النعت بصيغة المفرد لا الجمع تنزيها له عن التعدد، والذي لا يمتزج بالفانين، مع إشارة في الأثناء إلى وحدة الكل، الإلهي والبشري. وفي -كتاب الجمهورية- تأكيد على أن الله هو خير مطلق، وهو دائما يتجاوز الكائن الزائل. وبالطبع، ليس إفلاطون وحده من يلوح في طريق فَنّيني، في بحثه لتأصيل التصوف الغربي، بل أرسطو أيضا. ففي -كتاب الميتافيزيقيا- تقتضي الضرورة تواجد كائن، لعلّة غير معلولة يتماهى مع الخير، هو مبدأ لكل الموجودات. ويشمل فَنّيني بتأصيله للتصوف الغربي الإفلاطونيةَ المحدثة أيضا، والحقيقة أن التأمل الأفلوطيني، إضافة إلى المعلم إفلاطون، يولي اهتماما أيضا للضرورات الروحية لعصره، حيث تتداخل أنواع شتى من الاعتقادات الدينية في زمن مأزوم ومهووس بالبحث عن -الخلاص- المتمثل في -الأحد- أو ما نطلق عليه بلغة عصرنا المطلق. فمع أفلوطين ثمة بحثٌ عن التوحد عبر الوجد ومن خلاله مع الواحد الصمد. فهو فوق الكل وبما يتجاوز الجميع، ليس له أية خاصية أنثروبومورفية، والذي يمكن تعيينه بالعدم واللاّشيء أيضا. ليس بوصفه ليس موجودا، بل بصفته يتعالى عن أي تمثيل أو احتواء أو أي شكل من أشكال الوجود. كما

يتابع فَنّيني بحثه عن بواكير التصوف بالغرب مع برقلس وفرفريوس الصوري (ت. ٣٠٥).

في القسم الثاني من الكتاب، المعنون بـ«المسيحية»، يستهلّ فَنّيني حديثه بحديث البدايات عن التصوف المسيحي. حيث يتطرّق إلى ضرورة التمييز بين -الدلالات الدينية- و-الدلالات الصوفية- في الكتاب المقدّس، فليس كل ما هو ديني هو بالضرورة صوفي. مستعرضا شخص المسيح (ع) قولا وعملا، بوصفه تجربة حية للتصوف وللصوفي، مارا بالتحول الذي أحدثه بولس من خلال إلحاحه على أسطورة الخلاص التي يمثلها المسيح، أو بالأحرى تقليده بوصفه تجربة في التحول الروحي، حيث انتهاء الإنسان الجسد وحلول الإنسان الروح. وهو ما لخصه في قولة تُعدّ جوهرية في التصوف المسيحي -وأما من التصق بالرب فهو روح واحد- (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس٦: ١٧). ذلك أن التحوير الذي أدخله بولس في النظر إلى شخص المسيح يعد محوريا وجذريا في المسيحية، ليس على المستوى الروحي فحسب، بل على المستوى العقدي واللاهوتي خصوصا.

ثم يستعرض فَنّيني التحولات التي طبعت مفهوم التصوف مع آباء الكنيسة، مع أوريجنس وغريغوريوس النيصيّ وديونوسيوس الأريوباجي وأوغسطين وغريغوريوس مانيو. ليصل بنا إلى العصر الحديث والتطورات الصوفية الأخيرة في الغرب. يتطرق فَنّيني تحت عنوان -الإصلاح المضاد- إلى جملة من الرموز الصوفية لتلك الفترة فضلا عن جملة من تجمعات الرهبنة المسيحية، غاضا الطرف عن -الإصلاحيين- أي البروتستانت. فالفترة شهدت بروز أهم تشكيلات الرهبنة الكاثوليكية، بدءا من التصوف النُّسكي اليسوعي مع القديس إغناطيوس دي لُويُولا (ت. ١٥٥٦). هذا الصوفي الناشئ من رحم المعاناة من -الموري- الأندلسي، يلتهب لديه الحماس النضالي لدحر الموريسكيين والحماس الروحي لنشر دينه على حد سواء. لكن التطور الروحي لليسوعيين وللتصوف اليسوعي، تحديدا في إسبانيا، يتغاضى فيه فَنّيني عن أصوله الإسلامية وعن تأثره بالتجارب الإسلامية، دون إشارة إلى ذلك، في زمن كان فيه التصوف في المسيحية الكاثوليكية هرطقة في الدين، باعتباره بدعة منكرة، طورد رواده ولقوا صدّا من الكنيسة.

عقب ذلك يتناول فَنّيني بالحديث التصوف الكرملي مع تيريزا الآفيلية الناشئة في إسبانيا، والغريب أن فَنّيني مع كل ذلك لا يدفعه الأمر إلى إزاحة النظر نحو التجارب الروحية عند الموريسكيين. إذ يروى أن تيريزا الآفيلية في شبابها كانت تود الفرار نحو أرض الموريسكيين. يحدوها شوق عبرت عنه في قولتها الشهيرة -الوجْد قضاءٌ لا مردّ له، تُنتزع فيه الروح من الثرى بيد الله كما تختطف الكواسر طريدتها دون أن تدري إلى أين المساق. وبالتالي لا بد من

رباطة جأش لمتابعة المسار، إذ غالبا ما حاولتُ دفع الوجْد، مقدّرةً أنه وهْم، ولكني وجدتُ نفسي صريعة كأني أغالب ماردا-. تلا ذلك حديث عن شخصية صوفية أخرى مهمة يوحنا الصليب المعروف بإقراره أن الله تعالى أبعد من أن يدركه إدراك أو يشعر به شعور أو تتخيله مخيلة، ولا يمكن معرفته مباشرة إلاّ بالحب الخالص.

في القسم الثالث من الكتاب، المعنون بـ-العالم المعاصر-، يستعرض فَنّيني مقولات جوردانو برونو في التصوف ورؤيته الروحية للعالم، ثم ينتقل إلى باروخ سبينوزا، الذي برغم خطه العقلاني فإن الأخلاق لديه مؤدّاها إلى الله. وتحت معنون لاحق ضمن هذا القسم يتناول فَنّيني حقبة -ما بعد التنوير- وخطاباتها ذات النزعة الصوفية، وهو ما يتجلى في المثالية مع فيخته وشيلنغ وهيغل وشوبنهاور ونيتشه. ليخلص إلى الحديث عن -عصرنا الراهن-، وإن كان التصوف الراهن وفق منظوره يغيب عنه المركز، أو بالأحرى يفتقر إلى المرجع المركزي، فنحن نعيش وفق توصيف عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر في -معبد تعددي- يختار فيه كلّ معبوده، أي قيمه، حيث نشهد زحف التقاليد الشرقية على الغرب، أو بتلطيف العبارة اختراقها للحصانة الروحية للغرب. في خضم ذلك يرحل فَنّيني مع الإلماعات الصوفية لفتغنشتاين، الذي بيّن أن العلم الحديث والتقنية والثقافة الوضعية تبقى جميعها فقيرة ومنقوصة، حتى وإن كان الدين التقليدي غير قادر على توفير إجابة شافية وملائمة في الغرض، فالذكاء وحده يجد الطريق في ما يطلق عليه (das Mystische). إذ التصوف بالنسبة إلى فتغنشتاين هو حدس جمالي للعالم، يتوارى فيه الموضوع المفكر فيه والمتخيل كوهم باطل.

من جانب آخر يتطرق فَنّيني إلى سيمون فايل (١٩٠٩-١٩٤٣)، من أصول يهودية، التي تتحدث عن الاغتراب عن الخير، عن الله، وهو ما يتجلى في جل مظاهر التقنية. ففي مسارها التأملي في التجارب الروحية في الكتاب المقدس تذهب فايل إلى أن الإله العبري هو إله طبيعي في حين الإله المسيحي هو ما فوق طبيعي.

يتطرق مؤلف الكتاب كذلك إلى تجربة إيتي هيليسوم (١٩١٤-١٩٤٣)، وهي كاتبة من أصول عبرية هولندية لكنها لا تنتمي لأي دين، بل بالأحرى ترفض اليهودية والمسيحية بوصفهما نسقين دينيين مغلقين. لكن تبقى هيليسوم تفتقر إلى نظرة منهجية لما يطبع رؤيتها من تناثر.

ليختتم الكتاب جولته بالحديث عن رموز التصوف في الزمن المعاصر مثل الأم تيريزا، المطوَّبة أخيرا من قِبل البابا فرانسيس برغوليو، جزاء لما دشنته من اختراقات للكنيسة في العالم، والتي تجاوَز فعل الخير لديها، وفق فَنّيني، حدود المسيحية. معتبرا مؤلّف الكتاب أن -التوحد مع الروح- هو عين الاتحاد مع الحياة، وهو حركة الروح المتسقة مع -الحب الذي يحرك الشمس وسائر الكواكب- كما وصف دانتي الأمر في -الكوميديا الإلهية- (الجنة: XXXIII). فالصوفي وهو يتأمل سرّ الألوهية، ينخطف منجذبا إلى صورته الذاتية، إلى الوجه الإنساني، الماكث في قلب الدائرة المشعة نورا.

الكتاب حوصلة تاريخية لتجربة من تجارب تمظهرات الدين في الغرب كما تجلت في التصوف. لم يخل فيها من بعض النقائص رغم الطابع الأكاديمي الذي نحاه مؤلفه من حيث التوثيق والإحالات، حيث يسقط صاحبه، متعمدا ولا نظنه سهوا، بعض المحاور عند التطرق لموضوع بحجم التصوف الغربي، ونقصد التواصل مع التصوف الشرقي عامة والإسلامي والهندي خاصة، فضلا عن عدم إيلائه اهتماما التصوف البروتستانتي مع أن نظيره الكاثوليكي كان حاضرا، لا سيما في فترتي الإصلاح والإصلاح المضاد.

الكتاب: «تاريخ التصوف الغربي».

المؤلف: ماركو فَنّيني.

الناشر: لي ليتّري (فورانسا-إيطاليا).

سنة النشر: ٢٠١٥.

عدد الصفحات: ٤٦٧ صفحة.

* أستاذ تونسي بجامعة روما

«دمشق في القرون الوسطى: التعدد والتنوع في مكتبة عربية».. لكونراد هيرشلير

محمود حدَّاد *

يقول النقاد إنَّه يُمكننا استخلاص الكثير عن الناس من معرفة ما يقرأون، كما يُمكن للمؤرخين استخدام طريقة مماثلة للتحقيق في طبيعة المجتمعات المتعلمة القديمة. ومن الأمثلة البارزة العالم الإسلامي في العصور الوسطى. كان المجتمع الحضري الإسلامي بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الأكثر تعلماً في عصره: كانت معدلات معرفة القراءة والكتابة لديهم أعلى بكثير مما كانت عليه في أوروبا في العصور الوسطى، وقد عبَّر المسلمون عن تقديرهم للكتب في مواقع عديدة؛ مثل: بيت الشعر للمتنبي الذي يقول «خير جليس في الزمان كتاب». ومن أجل فهم حقيقي للمسلمين في العصور الوسطى، نريد أن نعرف عن الكتب التي كانوا يقرؤونها، وفي ذلك يقدم كتاب «دمشق في القرون الوسطى» للكاتب كونراد هيرشلر نظرة فريدة من نوعها.

والكتاب عبارة عن دراسة ممتعة وإن كانت ذات مصدر واسع، أو ما يسمى بدراسة تعتمد على مصدر واحد أو ما يسمى «تاريخاً جزئياً» واضحا: بطله مكتبة دمشقية من القرون الوسطى تسمى «مكتبة الأشرفية»، يستكشفها كونراد هيرشلر من خلال فهرس مقتنياتها، كما كُتبت من قبل القائم على المكتبة مجهول الهوية، ربما في أواخر القرن الثالث عشر. كان ذلك العصر عصر صلاح الدين الأيوبي وفتوحات الصليبيين والمغول، لذلك قد تبدو كتابة دراسة من ٥٠٠ صفحة عن مكتبة واحدة (لم تعد موجودة الآن، إضافة إلى كونها مكتبة متواضعة) غريبة بعض الشيء. ولكن الأهمية الفائقة للكتب بالنسبة للدمشقيين في القرون للوسطى، إضافة إلى الفكر الثاقب لهيرشلير ساعد في جلاء الغموض عن الموضوع حين يستنبط مراجع قيمة من التفاصيل حول المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى.

يحتوي فهرس مكتبة الأشرفية الذي كتب في ٦٧٠هـ/١٢٧٠م. على حوالي ٢٢٠٠ كتاباً مقدماً من حاكم دمشق المملوكي الملك الأشرف، الذي ترك المكتبة كإرث بعد موته في ١٢٣٧ من أجل الاستخدام العام واقتراض الكتب في ناحية علمية من نواحي دمشق ما بين القلعة والجامع الأموي. والفهرس مميز جداً بسبب بقائه حتى اليوم؛ إذ من بين المئات من المكتبات القديمة في دمشق والقاهرة وبغداد وأماكن أخرى لم يبق سوى فهرسين اثنين للكتب. ويعتبر فهرس كتب «مكتبة الأشرفية» الأقدم والوحيد المتوفر للفترة ما قبل الفترة العثمانية، ويتوفر الفهرس الثاني في مكتبة جامع القيروان في تونس، والذي يشمل ١٢٥ كتابا فقط ومؤرخاً في ٦٩٣هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م.

ومن خلال الترجمة الدقيقة للجدول والمؤشرات الهندسية والأدلة النصية من التاريخ المعاصر، وبمساعدة أربعة رسوم توضيحية غامضة لمكتبات من القرون الوسطى في مخطوطات عربية مزخرفة أخرى، يأخذنا كتاب هيرشلير خطوة إلى الوراء من حدود الصليبيين والمغول إلى الهدوء في باحة مكتبة الأشرفية؛ حيث الكتب المنظمة على رفوفها بطريقة مبتكرة. تكشف الجهود التي بذلها هيرشلير في هذا الكتاب نطاق المجموعة التي تحتويها المكتبة والتنوع الكبير في الأنواع الأدبية والعلمية الموجودة فيها والنظام الذي استخدمه القائم على المكتبة في تنظيم العناوين المتعددة لتسهيل إيجادها.

إنَّ مجموع النتائج التي توصل إليها هيرشلير تفتح الباب على مجموعة واسعة من الأسئلة. ماذا كانت وظيفة العقيدة والتعليم والمدرسة؟ ماذا كان يعني أن تكون حاكماً وإماماً ومفكراً أو مجرد قارئ في دمشق في زمن كانت فيه مركزاً ثقافياً بارزاً؟ وماذا كانت تعني بالنسبة لهؤلاء الدمشقيين المعرفة و«الكلاسيكيات» والأسس الفكرية لحضارتهم الإسلامية في القرون الوسطى؟ تتجنب مقاربة هيرشلير التاريخية الدقيقة الوصول إلى استنتاجات واسعة لصالح التركيز على المكتبة قيد الدراسة. كما أن هذا الكتاب ليس مقدمة عامة للحضارة الإسلامية في عصر الصليبيين. بل إن هدفه اختبار التعميمات التقليدية والتشكيك بالروايات المنقولة، مستكشفاً آفاقاً جديدة بإعطاء الأهمية لجدول المكتبة الذي يشكل وثيقة خالية من القصص السردي ومن التحيز ومن أجندة التاريخ التقليدي.

ويُقدِّم العرض الشامل للشعر ما قبل الإسلام في المكتبة وجهات نظر أخرى لفهم تقدير الشعر: فهل كانت الأشعار مجمعة لأسباب فيولوجية متعلقة بفقه اللغة؟ وهل كانت متعلقة بالتعليم الديني؟ وهل كان المسلمون الحضر يقدرون تقاليد ما قبل الإسلام بشكل أوسع مما كان يُعتقد؟ تضيف مقتنيات المكتبة من الكتب الدينية إلى جانب العناوين المختلفة الأخرى دفعاً متجدداً لتعديل النماذج القديمة التي تقول بأن الفقهاء الدينيين «التقليديين» كانوا بعيدين جدًّا عن الأدباء الآخرين. وتظهر البيانات أيضاً إنتاجاً موضعياً جدًّا للمعرفة محفزة أسئلة جديدة حول العمل الفعلي للمجتمع الثقافي العربي العام.

ويُنصح هؤلاء الذين يسعون للتعرف على الثقافة الأدبية الإسلامية في القرون الوسطى للبدء بكتاب هيرشلير السابق «الكلمة المكتوبة في الأراضي العربية في القرون الوسطى» (٢٠١١م). وسيصرف علماء الأدب العربي وقتاً طويلاً في تحليل كتاب «دمشق في العصور الوسطى». أما من وجهة نظر أوسع، فإن هذ الكتاب سيسمح لنا أخيراً بمعرفة أنواع الناس الذين كانوا يعتبرون دمشق مدينتهم لأن مكتباتها كانت موزعة توزيعاً جغرافياً متباعداً.

جدول (١)

نسبة الكتب المحفوظة في المكتبة الأشرفية بحسب مواضيعها

التسلسل	الكتاب	عدد النسخ	النسبة
١	العلوم النقلية خاصة القرآن والحديث	١١٥	٪١١,٥
٢	العلوم النقلية خاصة الحديث والخطب الدينية	٧٨	٪ ٧,٥
٣	العلوم النقلية خاصة الفقه	٣٩	٪ ٤
٤	العلوم اللغوية خاصة قواعد اللغة	٦٧	٪ ٦,٥
٥	العلوم اللغوية خاصة التاريخ	٣٧	٪ ٤٣,٥
٦	الشعر خاصة الجاهلي والأدب الإسلامي المبكر	١١٢	٪ ١١
٧	الأدب	٤٦	٪ ٤,٥
٨	الأدب	٩٧	٪ ٩,٥
٩	العلوم العقلية خاصة الفلك وتفسير الأحلام	٤٧	٪ ٤,٥
١٠	العلوم العقلية خاصة الطب والصيدلة	٧٨	٪ ٧,٥
١١	الشعر خاصة العباسي المتأخر وما تلاه	١٨	٪ ٢
١٢	الشعر خاصة (العباسي المتأخر وما تلاه) والصلاة	٨٣	٪ ٨
١٣	الشعر خاصة المقتطفات	٨٧	٪ ٨,٥
١٤	الأدب (في فهرس المبنى الملحق بالمكتبة)	٠٣	٪ ٠,٣
١٥	الأدب، الشعر وشرح الشعر	١١٢	٪ ١١

جدول (٢)

أكثر الكتب قراءة بحسب عدد نسخها

التسلسل	المؤلف	الموضوع	التاريخ	عدد النسخ
١	الشعر سلامة بن جندل	شعر جاهلي	؟	١٥
٢	مقامات الحريري	أدب	١١٢٢/٥١٦	١٥
٣	ديوان أبو نواس	شعر	٨١٥/٢٠٠	١٢
٤	الموج بن الزيمان	شعر	؟	١٢
٥	فقه اللغة للثعالبي	علم المعاجم	١٠٣٨/٤٢٢	١٢
٦	تقاويم الصحة لابن بطلان	الطب	١٠٦٦/٤٥٨	١١
٧	ديوان ابن حيوس	شعر	١٠٨١/٤٧٣	١٠
٨	الحماسة لأبو تمام	شعر	٨٤٥/٢٣١	١٠
٩	ديوان ابن هاني	شعر	٩٧٣/٣٦٢	١٠
١٠	ديوان مهيار	شعر	١٠٣٧/٤٢٨	٩
١١	ديوان البحتري	شعر	٨٩٧/٢٨٤	٩
١٢	سقط الزند للمعرِّي	شعر	١٠٥٨/٤٤٩	٨

١٣	صحيح مسلم	حديث	٨٧٥/٢٦١	٨
١٤	منهاج البيان لابن جزلة	علم الصيدلة	١١٠٠/٤٩٣	٨
١٥	ديوان المتنبي	شعر	٩٥٥/٣٥٤	٨
١٦	مجمل ابن فارس	علم المعاجم	١٠٠٤/٣٩٥	٧
١٧	شعر المتلمس	شعر جاهلي	؟	٧
١٨	تتمة اليتيمة للثعالبي	شعر/أدب	١٠٣٨/٤٢٩	٦
١٩	نهج البلاغة للشريف الرضي	أقوال علي بن أبي طالب	١٠١٦/٤٠٦	٦
٢٠	غزال للشريف الرضي	شعر	١٠١٦/٤٠٦	٦
٢١	ديوان كُشاجم	شعر	٩٦١/٣٥٠	٦
٢٢	الصادح والباغم ابن هبارية	شعر/أدب	١١١٥/٥٠٩	٦
٢٣	ديوان ساردار	شعر	١٠٧٤/٤٦٥	٦

جدول (٣)

أكثر المؤلفين شعبية وقراءة

المؤلف	التاريخ	عدد الكتب الموجودة بالمكتبة
الثعالبي	١٠٣٨/٤٢٩	٤٦
الجاحظ	٩-٨٦٨/٢٥٥	٣١
الغزالي	١١١١/٥٠٥	٣٠
ابن دريد	٩٣٣/٣٢١	٢٤
ابن الجوزي	١٢٠٠/٥٩٧	٢٣
أبو العلاء المعرّي	١٠٥٨/٤٤٩	٢٠
الرازي	٩٢٥/٣١٣	١٨
الشريف الرضي	١٠١٦/٤٠٦	١٣
أبو الفتح ابن جني	١٠٠٢/٣٩٢	١٣
الأصمعي	٨٢٨/٢١٣	١٢
ابن سينا	١٠٣٧/٤٢٨	١١
أبو تمام	٨٤٥/٢٣١	١١
أبو حيان التوحيدي	١٠٢٣/٤١٤	١١
الكاتب التبريزي	١١٠٩/٥٠٢	١٠
الحاتمي	٩٩٨/٣٨٨	١٠
المتنبي	٩٥٥/٣٥٤	١٠
أبو الفرج الأصفهاني	٩٦٧/٣٥٦	٩
عبد الله ابن المعتز	٩٠٨/٢٩٦	٩
إبراهيم بن هلال الصابي	٩٩٤/٣٨٤	٩
ابن قتيبة	٩٣٣/٣٢١	٩

وبحسب التاريخ الهجري، فإن القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي تقريباً) كان أكثر القرون إنتاجاً، يليه القرن الخامس ثم الثالث ثم السادس أي أنّ القرون التي تمتد من القرن الثالث حتّى القرن السادس الهجري (من التاسع حتى الثاني عشر ميلادي) كانت أكثر الفترات إنتاجاً مكتوباً في العالم الإسلامي.

وبالمقارنة مع بعض المكتبات الإنجليزية في العصر الوسيط خاصة القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي، فإننا نجد أن مكتبة الأشرفية كانت تتفوق في نسبة الكتب العلمية والتاريخية والأدبية مع أن نسبة كتب العلوم الدينية كانت مرتفعة في الحالتين، إلّا أنها مثلت نسبة أعلى في المكتبات الإنكليزية في تلك الفترة. وهذا يعني أن مكتبة الأشرفية كانت تحوي نسبة أعلى من الكتب الأدبية والعلمية في ذلك العصر.

جدول (٤)

نسبة الكتب المحفوظة بمكتبة بيتربورا وسط إنجلترا في العصر الوسيط

اللاهوت	٧٣
قواعد اللغة والمنطق	٤,٣
الفلسفة	٢,٦
القانون (المدني والكنسي)	٤,٥
الكلاسيكيات	٥,٥
العلوم والطب	٦,٨
التاريخ	٣,٣

ولا شكّ أنَّ إحدى السمات الرئيسة لمكتبة الأشرفية كونها مكتبة تعليمية تختلف عن المكتبات الخاصة التي كانت موجودة في المنازل (والتي كانت وظيفتها تنحصر في اهتمامات صاحبها)؛ لهذا يمكن وصفها بأنها كانت مكتبة عامة. لذلك يجب النظر إليها من ضمن الصورة الأوسع لثقافة دمشق. وهذا يعني أنه من الضروري عدم تقييمها كجزء من اهتمامات طبقة علماء الدين حصراً، بل كمكتبة تعكس اهتمامات القرّاء الواسعة في مدينة كدمشق. ومن الطبيعي أن مستخدمي المكتبة كانوا من «العلماء» إلّا أنّ النقطة المهمة أنها وُجدت في مرحلة كانت فيها الكلمة المكتوبة تشهد توسعاً سريعاً حيث أن مجموعات إضافية من السكان كانوا يستخدمونها أيضاً. لذلك من الخطأ النظر إلى مكتبة الأشرفية باعتبارها مكتبة مؤسسة تعليمية محدودة القراء لأن نسبة القراءة والكتابة كانت عالية نسبياً في العالم الإسلامي الحضري وخاصة في مدينة كدمشق.

الكتاب: «دمشق في القرون الوسطى: التعدد والتنوع في مكتبة عربية».
- المؤلف: كونراد هيرشلير.
- الناشر: جامعة أدنبرة، ٢٠١٦، باللغة الإنجليزية.

* كاتب لبناني

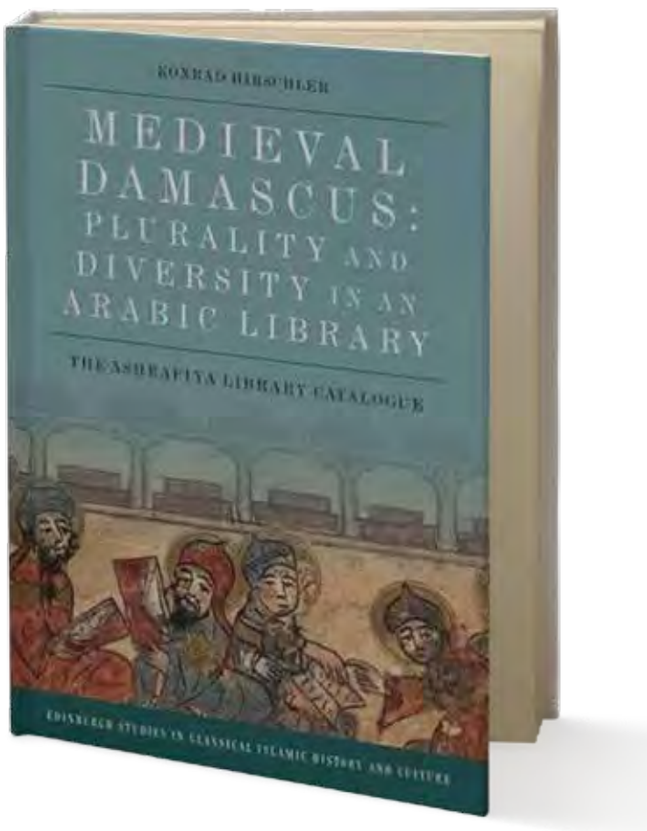

«زمن بيبليوسكوب: الحداثة في مرآة ثقافة الكتاب».. ليوليا شيربينينا

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

حسب مقولة شهيرة للناقد والفيلسوف والروائي الإيطالي «إمبرتو إيكو»، استشهدت بها الباحثة الروسية يوليا شيربينينا في كتابها الجديد «زمن بيبليوسكوب.. الحداثة في مرآة ثقافة الكتاب»، فإنَّ: «كل أنواع الكتب، فيما يخص تكوينها المادي الملموس، لم يطرأ عليها تبدل، لا في وظيفتها ولا في تركيبتها؛ وذلك طوال أكثر من خمسة قرون. إنَّ الكتاب، مثله مثل الملعقة والمطرقة أو العجلة والمقص، اللائي، وبعد أن استُحدثت أول مرة، لم يُصنع شيئا من طينتها أفضل منها. إنكم لن تخترعوا ملعقة أفضل من الملعقة». (من كتاب «لا تأملوا في التخلص من الكتب»، إيكو، ٢٠٠٩م).

يوليا شيربينينا، باحثة روسية مختصة في دراسات التواصل الاجتماعي ودراسات الكتاب. حائزة على عدة جوائز في مجالها، وينافس كتابها -الذي نحن بصدد عرضه هنا- على الجائزة الروسية «التنويري» الخاصة بالكتب غير الأدبية التي تُسهم في نشر العلم.

وبأسلوب يتَّسم بعُمق الرؤية، تفتح شيربينينا أمام القارئ موضوعا جديرا بالنقاش، بل ومحفزا إليه وداعيا إلى التساؤل حوله. موضوع قديم نسبيا ولكنه يتمظهر كل مرة في لبوس جديدة ومتغيرة. موضوعها هو الكتاب باعتباره مرآة العصور ومصفاة لحياة الأجيال التي اتخذته وثيقة حفظت لها صورتها، وأسهمت في تطوير نظرتها ومنظورها تجاه الزمن والحضارة.

ويرتبط البحث -الذي بين أيدينا- بالعمليات الاجتماعية الراهنة المتعلقة بثقافة الكتاب: الأشكال الحديثة التي يصدر بها الكتاب، والتيارات الأدبية المستجدة، والتجارب الإبداعية، والإستراتيجيات القرائية، وطرق العلاج بالقراءة. كما يتطرق البحث إلى الشغف بالكتب، واستبداد النقاد، ومرض إدمان الكتابة، واختلاس النصوص، ومسألة إعادة كتابة النصوص بأسماء جديدة كنوع من القرصنة التي تدور رحاها فيما يعرف بالعالم الافتراضي؛ هذا العالم الذي ما برح يتعاظم ويفرض سطوته على الواقع المُعاش.

تُشاطرنا الباحثة استدلالاتها وملاحظاتها عن كيفية بناء العلاقة بين الناشر والكاتب والقارئ في راهن أيامنا؛ وما الذي تعنيه المكتبات ضمن الواقع الالكتروني المضطرد. مع ذلك -من جهة أخرى- فالناس، حتى يومنا الراهن، وبمجرد ظنهم السوء بالكتاب، يعمدون إلى حرقه، وفي اعتقادهم أنهم ينفذون حكم الإعدام عليه ويقومون بقتل الفكرة التي يحملها. وإن كنا نستهجن مثل هذا السلوك سابقا ونصفه بالبربرية وانتفاء حسه الحضاري، يحلو لنا اليوم رؤيته من زاوية أخرى ترمز إلى القوة الثقافية والاجتماعية التي مازال الكتاب يتمتع بها.

وفي فصول الكتاب الاثنين والعشرين، تبحث الكاتبة عن سبيل يخلصها من حالة الاستنكار المصحوبة بالغم والشعور بخيبة الأمل من طبيعة الثقافة الحديثة، ولكن بلا جدوى. ترى بأن الفرد المعاصر لا يبذل أدنى مجهود لاكتساب معرفة حقيقية، كقراءة الكتب والنصوص التي تضيء له الطريق لمعرفة النفس واستنباط الحياة والكون.

تُطلق الباحثة على القارئ في الثقافة الحديثة كلمة «بيبليوسكوب» (الكلمة اليونانية التي تضمنها عنوان الكتاب) وأقرب ترجمة لها كلمة «فرجة» بمفهومها الاصطلاحي الدارج. وحسب منطق الباحثة وشرحها، فالجيل الذي يتعامل مع الكتب في الوقت الراهن، ويعود إليها بين الحين والآخر، يفعل ذلك لا من أجل قراءتها وإنما ليتفرج عليها ويمني نفسه باليوم الذي سيلبي فيه نداء القراءة ويغرف من مكنونات الكتب... ولكن ذلك اليوم لا يأتي أبدا.

وكما تلاحظ الباحثة، فإنَّ السمة الرئيسة للقارئ الحديث ترتكز على أنه لا يحتاج إلى الجديد بقدر ما يهمه التعرف على الأشياء الغريبة والمختلفة والمنفلتة من التقاليد والمعايير القارة. كما تخضع متطلباته ورغباته للموجات السريعة والمتغيرة وللنزوات الومضية البراقة، أو ما يسمى بالموضة والصرعة. تقول في هذا الصدد: «إن مجتمع الموجات المتغيرة، على العكس من مجتمعات التقاليد المتجذرة، لا تقبل بإستراتيجية التحفظ، وإنما ديدنها هو التحول اللانهائي للأشياء، ولا نهائية التحولات. إنه عصر ما بعد الجمال. ليس بمعنى سيطرة الشكل على المضمون وإنما، وبالأساس، الاعتراف بأن الثانوي يمتلك قيمة اعتبارية أكبر من الأصيل. نرى أن العبارات المقتبسة من الكتب تمتلك قوة تأثيرية كبيرة حين نقرؤها على الجدران والأسوار، وأكبر من قراءتها في الكتب التي اقتبست منها. نجد أن كتابا بشكل دراجة يثير إعجاب المتسوقين أكثر من الكتاب التقليدي» (ص:٨٠).

وترسم لنا يوليا شيربينينا صورة متكاملة عن ثقافة الكتاب في الماضي، مقارنة إياها بصورتها في يومنا الحاضر. تخبرنا عن القطع التكميلية للكتاب مثل الأدوات المستخدمة لتناول الكتب من الرفوف، والعجلة التي يستعان بها لحمل الكتب، والكراسي المخصصة للقراءة، وغيرها من الأجهزة وقطع الأثاث المساعدة.

وتحدِّد شيربينينا ماهية الكتاب وطرق تسويقه في وقتنا الراهن. فأفكار المهندسين والمصممين والرسامين منصبة على مظهر الكتاب وكيفية تغييره باستمرار. كل الإمكانيات الإبداعية موجهة إلى الجانب البراني للكتاب ولا صلة لها بجوانبه الجوانية وبالإسنادات الأخرى التي تتيح للقارئ وقتا مريحا مع كتابه.

والحال هكذا، وبعد أن انقضى زمن على الكتاب وبدأ زمن آخر: زمن يقدم المظهر قبل الجوهر ويُعلي الشكل على المتن، تكون الحاجة ملحة لتثبيت مكانة الكتاب الحقيقي وتدعيم وضعه وقيمته الثقافية. تقول المؤلفة: «اليوم، في ظل حركة النشر النشطة، وتحت وقع المنافسة الضارية في سوق الكتب، وأمام عملية تسليع الكتاب، لا تدخر دور النشر جهدا أو حيلة لاستمالة عين المستهلك إلى أغلفة الكتب، واستدراج يده للمسها، وأحيانا إثارة أنفه لشمها. إن الإصدار الذي يُعرض اليوم شبيه بعروس مزوقة: ألوانها براقة وتطريزها جذاب. وفي حين كان الناشر سابقا مهتما بوضع صيغة توفيقية بين شكل الكتاب ومضونه، نراه اليوم يعمل على الإدهاش لاستمالة المستهلك. فما الذي لم يُصنع بعد في هذا النمط من التسويق؟ وهل من عجب -في هذا السياق- لو جيء لنا بكتاب نستدل إلى موضوعه وقيمته المعرفية عن طريق رائحة تصدر عنه؟» (ص:٣٦).

تسوق المؤلفة أمثلة لما يمكن أن نسميه جنون الكتاب، مبينة في أمثلتها طبيعة المنافسة في سوق الكتاب والإجراءآت التي توصلت إليها دور النشر

لترويج بضاعتها. ففي روسيا صدر كتاب للأطفال وصل وزنه إلى ٤٩٢ كيلوجراما وحجمه من ٣ إلى ٦ أمتار. وفي كرواتيا اخترعت إحدى دور النشر كتابا في الطبخ لا يفصح عن وصفاته قبل أن يتم تحميره في الفرن. أو الكتاب الأرجنتيني الذي حمل عنوان «الكتاب الذي لا يمكنه أن ينتظر» فما إن تفتح صفحة من صفحاته حتى يبدأ العد التنازلي للانتهاء من قراءة الصفحة، وإن لم يدركك الوقت، فإن القراءة ستفوتك، لأن الحروف ستختفي من أمام ناظريك.

يعرض الكتاب التغيرات التي طرأت على حياتنا الثقافية خلال العقود القليلة الماضية، على صعد مختلفة وليس فقط فيما يتعلق بثقافة الكتب والقراءة. من أبرز تلك التغيرات ما يمكن تسميته بربط الميادين الثقافية أو خلطها ببعض. نجد -على سبيل المثال- أن مكتبات اليوم تتخذ لنفسها وظائف لم تكن لها في السابق. هناك أمسيات الموسيقى والغناء التي تقيمها في أروقتها بين رفوف الكتب، مترجية من ذلك جذب اهتمام الجمهور إلى الكتب التي تروج لبيعها. ثمة أيضا المقاهي التي تعرض الأفلام، والمطاعم التي تفتح دروسا لتعليم اللغات، وحفلات الزواج في حدائق الحيوانات. كل هذه التغيرات وغيرها إنما هي مظاهر لثقافة جديدة تتسم بالحركية وعدم الثبات. وإن كان لهذا الجانب ميزته في الترويج للثقافة عموما وإشاعتها في المجتمع بطرق مستحدثة، إلا أن المحرك المادي الذي تتبناه والقاعدة الربحية التي تقف عليها يجعلها رهينة لتقلبات السوق ولمزاجية رجال الأعمال.

وفي الفصل الذي كرسته للمجازات الأدبية، وباعتبارها عالمة لغوية، نجحت المؤلفة في وضع مقاربة ظريفة لتركيبات لغوية في اللغة الروسية، تجمع بين مفاهيم الكتب والطعام. من بين ذلك قولنا بالروسية: كتاب لذيذ أو نص حار. رواية غير مهضومة. طريقة تحضير القصة. لقد شعرت بمذاق غريب بعد قراءتي القصة. وجبات سريعة في معرض الكتاب...وغيرها من التراكيب. ثمة تشابه آخر بين الإبداع والولادة فنقول: الفكرة حبلى بالمعاني. مخاض الإبداع. كتاب مثل طفل محبوب. ثمة كذلك مقاربات لغوية بين الكتاب والدواء وبين القراءة والعلاج.

لم يفت الكاتبة التطرُّق إلى تأثير الإنترنت على ثقافة القراءة، أكان التأثير سلبا أو إيجابا. فمسألة تقييم الكتب ونقدها في شبكة الانترنت متاحة للجميع، للعالم وللجاهل، ومقياس النجاح مرهون لنقاط الإعجاب المتحصلة. ولكن، وبالمقابل، فشراء الكتب في الشبكة العنكبوتية أو الحصول المجاني عليها يتم بسرعة قياسية، كما أن الأبواب مشرعة للإصدارات الذاتية وتصميم الأغلفة.

وتقدم الباحثة تقييمها العلمي والأخلاقي للظواهر الثقافية المطروحة، وتناقش الفوائد المرجوة منها والأضرار المترتبة عليها. فالقراءة ليست نفسها مثلما كانت منذ مئة عام وتجاذباتها مختلفة.

الغلاف اليوم يلعب دورا في سوق الكتب، والوفرة المجانية للمعلومات تقودنا إلى أقصر الطرق للحصول على ما نريده من كتب، ولكنها -في الوقت نفسه- قد تدفعنا إلى متاهات لا لزوم لها ولسنا بحاجة إليها. في هذا السياق تطرح المؤلفة أسئلتها الخاصة عن النتائج التي ستخلص إليها الأجيال القادمة في ظل التشكلات الثقافية الراهنة.

سعت الباحثة الروسية يوليا شيربينينا في كتابها الجديد «زمن بيبليوسكوب.. الحداثة في مرآة ثقافة الكتاب»، وبنهج علمي تحليلي عميق، إلى فهم الحقائق الثقافية في عالم الكتاب، متأملة موضوعها من زوايا مختلفة وعبر حقب تاريخية متعددة. كما أنها، وإن كانت غير متفائلة كثيرا بالحالة الصحية للمظاهر الثقافية الجديدة، إلا أنها وبتتبعها التاريخي للظواهر، واستبياناتها مختلفة الجوانب، ترسم لنا الداء وبجانبه تضع وصفة العلاج.

إنَّ مظاهر من قبيل مكتبة المقاهي، والعلاج بالقراءة، والكاتب الصغير، والعناوين التجارية المستفزة، والصرعات الطباعية، كل هذا كان موجودا في السابق، بيد أنه كان استثناء وخروجا عن القاعدة. ما يحدث اليوم شبيه بانقلاب على القواعد القديمة للقراءة، حيث الاستثناء أصبح قاعدة والغريب غدا منهجا.

ومن أجل وصف تقريبي لراهن الحالة الثقافية المتعلقة بالكتاب، تأتي الباحثة باستشهاد من السينما العالمية، وتذكرنا بفيلم الرعب «ذي شينينج» للمخرج الأمريكي الشهير ستانلي كوبريك. في الفيلم يرتحل البطل، وهو كاتب روائي، إلى منطقة نائية ويسكن فندقا يهجره النزلاء في فصل الشتاء. في ذلك المكان المعزول والمهجور يشرع البطل بكتابة روايته الجديدة، أو هكذا يبدو أنه يفعل. بيد أن الحقيقة المرعبة هو أنه، طيلة الفيلم، وبعد الصراعات المريرة التي مر بها، لم يكن يفعل شيئا سوى تكرار عبارة واحدة: «أنا أكتب رواية.. أنا أكتب رواية.. أنا أكتب رواية». لقد سيطرت عليه قوى الظلام الخفية وحولت فعله إلى مجرد مضيعة للوقت وإفساد للورق.

لا شكَّ أنَّ الكاتبة عالجت واحدا من أهم المواضيع الثقافية الراهنة؛ موضوع القراءة؛ باعتبارها سبيلا إلى اكتساب المعرفة، وموضوع الكتاب، الحامل المادي لهذه المعرفة، والذي ما برح يتعرض لشتى أنواع التحريف والتشويه، وذلك تماشيا مع غلواء الناشرين وجماح السوق. مع ذلك، وبعد كل شيء، فالوقت ما زال مبكرا لرصد المصير الحتمي الذي يحمله لنا الكتاب بشكله الجديد، وتقييم أي الكفتين سترجح: كفة الشكل الفضائية المسطحة أم كفة المتن الأرضية المعمقة!

الكتاب: «زمن بيبليوسكوب.. الحداثة في مرآة الكتاب».

- المؤلف: يوليا شيربينينا.

- الناشر: دار «فوروم» للنشر، موسكو ٢٠١٦، باللغة الروسية.

- عدد الصفحات: ٤١٦ صفحة.

*** أكاديمية ومستعربة روسية**

«صعود الأمم وسقوطها: قوى التغيير في مرحلة ما بعد الأزمة العالمية».. لروتشار شارما

محمد السالمي *

هناك الكثير من الكتب والتقارير التي تسعى إلى تقديم تحليل شامل للأداء الاقتصادي العالمي، والتي تعود إلى آدم سميث. وبصرف النظر عن الطموحات الواسعة، فإنه من الضروري أن ننظر بعناية في وجهة نظر العمل وما الذي يحاول المؤلفون تحقيقه. تبدأ الكثير من هذه الكتب من منظور النظر إلى الوراء، في محاولة لمعنى الخروج من سلاسل معقدة من الأحداث التي لا تزال تؤثر على الحاضر. بعض هذه الكتب تاريخية، وبعضها يركز على السياسة الدولية والدبلوماسية، مع أقل نسبيا من التركيز الواضح على الاقتصاد. حتى بين المناهج الاقتصادية، يمكن أن يكون هناك اختلافات كبيرة، وهذا يتوقف على ما إذا كان المؤلف يركز على المصانع والموارد البشرية، والمالية، والتجارة الدولية، أو قضايا التنظيم الحكومي والبنية التحتية.

في عام ٢٠٠٨، شهد العالم أزمة اقتصادية عميقة غيرت حياتنا للأفضل أو الأسوأ. وقد تمت تغطية أحداث عام ٢٠٠٨ من قبل الكثير من المؤلفين والاقتصاديين والمحللين الماليين، والصحفيين وغيرهم، وكتبت مئات الكتب عن الانهيار والدروس التي يجب أن تعلم، ولكن أيا منها لن يتطابق مع ما كتبه روتشار شارما «صعود الأمم وسقوطها «. فروتشار شارما، هو رئيس الأسواق الناشئة وكبير الاستراتيجيين في مورغان ستانلي لإدارة الاستثمارات في نيويورك. في كتابه الجديد، صعود الأمم وسقوطها: قوى التغيير في عالم ما بعد الأزمة، يرى شارما أن النجاح في عالم ما بعد الأزمة اليوم هو قابل للتحقيق، ولكنه يتطلب تغييرا جذريا في العقلية. فالاتجاهات الاقتصادية والديموغرافية والسياسية تسير في اتجاه مختلف تماما عن العالم ما قبل الأزمة. إن المرء يحتاج إلى تطبيق معايير جديدة لما يشكل الفشل الاقتصادي أو النجاح.

يهدف كتاب شارما الجديد إلى ثلاثة أشياء: تقييم الحادث، وتحليل السبب الذي قاد المستثمرين والاقتصاديين للتحمس، وتوفير إطار جديد للتفكير في الدول الناشئة. هناك الكثير من المديرين التنفيذيين والخبراء الاقتصاديين أخطأوا في تقدير توقعات النمو طويلة الأجل. فعلى الورق هناك بعض الأسباب التي تجعل الناتج المحلي الإجمالي للفرد في نمو أسرع بكثير في الاقتصادات الناشئة مما كان عليه في البلدان الغنية: على سبيل المثال، هذه الدول قد تكون قادرة على تخطي أجيال من التكنولوجيا، والتعلم من تجارب الدول الغنية. لكن التاريخ يشير إلى أن استمرار النمو السريع رهيب ومن الصعب تطبيقه في الواقع العملي. فمنذ عام ١٩٤٥، اختبرت أغلب البلدان طفرات من النجاح تغلغلت خلالها فترات من النمو المتوسط أو ما هو أسوأ.

ما الفكرة التنظيمية التي ينبغي أن تحل محل الاعتقاد بأن العالم الناشئ في يوم ما قد يتلاقى مع العالم الغني؟ اقتراح السيد شارما هو الدورات الاقتصادية. تختبر البلدان عادة النمو والركود الاقتصادي لمدة تصل إلى عشر سنوات. فطفرات النمو السريع تحتوي على بذور الدمار: المستثمرون مندفعون لرعاية مشاريع تافه لتيسير المحفظة، والسياسيون يصبحون راضين عن أنفسهم. بعد ركود البنوك والشركات تحدث عملية تطهير وإصلاح في نهاية المطاف، مما يتيح النمو لالتقاط الأنفاس مرة أخرى. فالبلاد في بداية نمو الدورة غالبا ما تكون لها قاعدة صناعية متوسعة، وديون مستقرة، وانخفاض في معدلات التضخم، وعملة رخيصة والتي بدورها تعزز الصادرات، وقادة جائعون لم يمضوا في الحكم طويلا بما فيه الكفاية ليصبحوا متقاعسين أو فاسدين.

الفصول الثلاثة الأولى تمس الجوانب الإنسانية للسكان (الموارد البشرية)، والقيادة والمليارات (الجيدة منها والسيئة). وقد اتخذ شارما العناية القصوى في تغطية جميع القواعد في حججه. الفصول الثلاثة المقبلة تغطي تدخل الدولة (القليل جدا أو الكثير)، والموقع الجغرافي للدولة والصناعات (الصناعات التحويلية والخدمات، وأكثر من ذلك). الفصول الأربعة اللاحقة تتناول العالم الاقتصادي، والتضخم، والأسواق، عوامل التكلفة، والديون، والعديد من المؤشرات المالية. ثم يأتي الفصل الأخير بعنوان «من الجيد والسيئ والقبيح»، وتوفير تصور عام لمستقبل جميع البلدان تقريبا على مدى السنوات الخمس المقبلة.

يرى الكاتب أنه ليس من الصعوبة التعرف على الدول التي نجحت والتي ليست كذلك، وذلك عن طريق الاعتماد على الناتج المحلي الإجمالي كمؤشر اقتصادي نموذجي. فقد عانت كل منطقة في العالم من تباطؤ في النمو منذ عام ٢٠٠٨ وحتى ٢٠١٦ والذي يصادف السنة السابعة في أضعف دورة من التوسع الاقتصادي العالمي في التاريخ الحديث.

وفي ظل هذه الخلفية وتحليل البيانات واسعة النطاق يهدف شارما من كتابه إلى التوصل إلى تقييم عام حول آفاق الاستثمار في البلاد من خلال تطبيق نظام جديد من عشر قواعد. كل هذه القواعد لديها منطق وافتراضات خاصة ودعم معرفي. وتشمل هذه القواعد:

التركيبة السكانية: الاقتصادات عادة لا تنمو بسرعة دون نمو قوي في عدد السكان من سن العمل. ويؤكد شارما أنه إذا كان عدد السكان في سن العمل يتزايد في أقل من ٢٪ في السنة، فإن الاقتصاد ينمو بقوة بمعدل ٦٪ سنويا، وهذه الحالة هي واحدة فقط من بين كل أربع حالات. اليوم، فقط دولتان: المملكة العربية السعودية، ونيجيريا، لديها نمو القوى العاملة فوق ٢٪. أما البلدان التي عدد سكانها في سن العمل آخذ في التقلص، يبلغ متوسط نمو الناتج المحلي الإجمالي فيها ١,٥٪.

قوائم الملياردرات: شارما يستخدم قراءة متأنية لقائمة فوربس لتحديد البلدان الأكثر تعرضا للثورة السياسية على عدم المساواة. إنه يتابع ثروة الملياردير كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي، ونصيب ثروة الملياردير القادمة من الميراث وعادة تكون عرضة للفساد في الصناعات؛ لأن ثروة الملياردير هي الأكثر احتمالا لتوليد الغضب الشعبي عندما

يرتفع كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي، ويتم إنشاؤها من الأسرة أو العلاقات السياسية. ربما الفصل الأكثر إلحاحا هو «المليارديرات الجيدة» و «المليارديرات السيئة». المليارديرات الجيدة هي تلك التي تخلق فرص العمل والمنتجات، وبالتالي دعم النمو الاقتصادي في المستقبل - وتشمل الأمثلة مؤسسي علي بابا من الصين وأقطابا أخرى بوادي السيليكون في الولايات المتحدة. على النقيض من ذلك، المليارديرات السيئة وتشمل أولئك الذين كونوا ثرواتهم من خلال الميراث، أو الاتصالات السياسية والفساد، أو اكتسبوا كليا من الاحتكارات المملوكة للدولة، والحصول على تراخيص لموارد طبيعية أو العقارات. ويشير شارما أن روسيا هي وجه من طراز المليارديرات السيئة حيث أنها تأتي ثالثاً في عدد المليارديرات بعد الولايات المتحدة والصين، و ٧٠ ٪ من الثروة تأتي من الأنشطة المتصلة سياسيا مثل النفط والغاز. وروسيا هي المرشح الرئيسي لرد فعل عنيف ضد التفاوت المتزايد. «وهذا هو نتيجة صعود طبقة راسخة من المليارديرات السيئة في الصناعات التقليدية والتي هي أكثر عرضة للفساد وهذا قد يخنق النمو». ولكن أيضا وجود قلة من أصحاب المليارات، في رأي الكاتب، هي أيضا علامة سيئة بسبب انعدام النمو الاقتصادي والميل إلى الترويج على أساس الأقدمية بدلا من الأداء، ويذكر اليابان نموذجاً.

تغطية لعنة القصة: خبراء التنبؤ غالبا ما يكونون وراء الظروف الاقتصادية. عندما تكون المنشورات السائدة في الأخبار العامة متفائلة حول أي اقتصاد، فإن هذا البلد قد ينزلق إلى الركود عاجلا وليس آجلا.

قبلة الدَّيْن: يرى شارما أنه يجب وضع البلدان التي قد تنمو فيها ديون القطاع الخاص أسرع بكثير من نمو الاقتصاد لمدة خمس سنوات على مشاهدة لتباطؤ خطير، وربما أزمة كذلك، وهذا ما يحصل حالياً في الصين.

تضخم أسعار الأصول: التضخم هو إحدى المعايير التي يستخدمها شارما، لتقييم آفاق الدول الكبيرة والصغيرة. وتكمن مشكلة التضخم في أنها تقتل النمو من خلال عدم تشجيع الادخار، ورفع تكلفة رأس المال والمساهمة في عدم الاستقرار السياسي. كما أن الخوف من الانكماش العالمي قد يشتت الحكومات من المؤشر الحقيقي الذي يعقب الركود أي تضخم أسعار الأصول. معركة اليابان لفترة طويلة ومؤلمة مع الانكماش هي فريدة من نوعها في فترة ما بعد الحرب، ومنخفضة المخاطر. ولكن

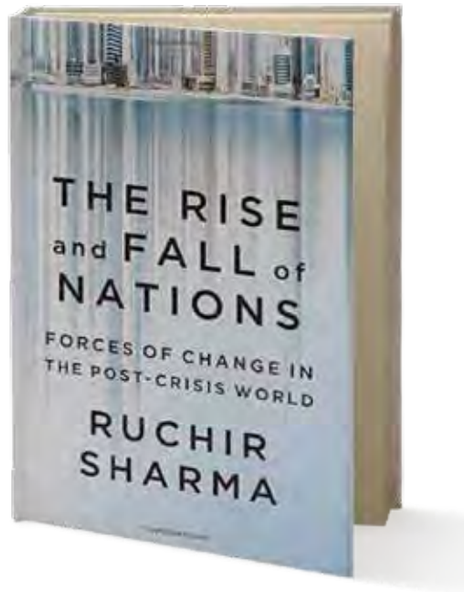

هناك صلة ضيقة على نحو متزايد بين فقاعات الأصول والركود. البنك الفدرالي الأمريكي والعديد من البنوك المركزية الأخرى تتجاهل التهديد الواضح للتضخم في أسعار الأصول إلى التركيز على تلك التي قد لا تكون موجودة.

اتبع السكان المحليين: على الرغم من أزمات العملة وغالبا ما يلقى باللوم فيها على هروب رأس المال الأجنبي، فإن أبحاث شارما تشير إلى أن السكان المحليين عادة يهربون أولا. السكان المحليون لديهم المعرفة بمجريات الداخل والتي تلوح في الأفق أن هناك مشكلة، لذلك يجب إبقاء العين على تدفقات رأس المال المحلية.

. قاعدة المدينة الثانية: في البلدان متوسطة الحجم، العاصمة عادة لا يزيد سكانها عن ثلاثة أضعاف سكان المدينة الثانية. دول مثل تايلاند، حيث عائق النمو في المناطق الريفية قد تواجه مخاطر عالية مثل التمرد.

قادة مبتذلون: إن القاعدة العامة هي أن الإصلاح الاقتصادي وتأثيره القوي يرجع على الأرجح في المقام الأول للزعيم. وتظهر أبحاث شارما أنه حتى في ظل نجاح القادة الناشئين في العالم، الذين يحكمون لفترتين على الأقل، تتركز ٩٠ ٪ من مكاسب السوق في العامين الأولين.

الرخيص جيد: يظهر شارما كيف أن التدابير التقنية لقيمة العملة هي عرضة للتلاعب، وهذا هو السبب الذي يحتاجه المستثمرون ليشعروا بغلاء العملة على السياح، سواء شراء القهوة أو الشركات. وهو مؤشر جيد للأسواق الناشئة التي يشعر الكثيرون أنها رخيصة و لافته للنظر.

الانغماس الجيد والسيء: يمكن قياس تأثير فقاعة الاستثمار على ما تترك وراءها. الإنفاق الاستثماري على العقارات يميل إلى ترك المنازل فارغة والأسر مثقلة. ولكن الإنفاق على التصنيع أو التكنولوجيا يترك وراءه الأصول التي من شأنها زيادة الإنتاجية عندما يتعافى الاقتصاد؛ وينبغي أن نعلم بأنه ليس كل انغماس يؤدي إلى المساواة.

ما يميز شارما، أنه يركز على الديناميات بدلا من أخذ لقطات مقطعية من البلدان. على سبيل المثال، ليس المستوى المطلق للدين الذي يهم، ولكن الذي يهم نسبة التغير في مستوى الدين في السنوات الخمس الماضية. التركيز على الديناميات يجعل حجج شارما أكثر قبولا وإقناعاً من مجموعة نموذجية من الأوصاف التي تتم عند المقارنة بين الدول. كما أن شارما يدعم تحليله بالبيانات والاحصائيات، ولا ننسى بالطبع أنه كان أحد موارد مورغان ستانلي.

يتمتع السيد شارما بالخبرة والبصيرة العالمية على مدى ٢٥ عاما من العمل والسفر في مختلف بلدن العالم.

فهو يعرف عمله، ويسأل الأسئلة الصحيحة، ويوصل إجاباته بشكل واضح. قليل من التحليلات التجارية من هذا النوع تكون جيدة على الإطلاق. في المقابل، يرى بعض النقاد أن كتاب السيد شارما فيه قصور في التفسير. فعلى الرغم من كونه مراقبا ذا خبرة كبيرة في المجال الاستثماري و أن تخميناته مدروسة حول الاقتصاديات في حالة النمو والانكماش فإنها مهارة مفيدة لمدير محفظة مالية، وتحويل الأموال في جميع أنحاء العالم. وهي أقل استخداماً من قبل العاملين لدى الحكومة، أو الشركات، على المدى البعيد. ومع ذلك، فإن كتاب السيد شارما يظل ممتعاً وصادقا ودليلا جيدا إلى ازدهار الأسواق الناشئة.

الكتاب: صعود الأمم وسقوطها: قوى التغيير في مرحلة ما بعد الأزمة العالمية

المؤلف: روتشار شارما

الناشر: edition 1 ;W. W. Norton & Company (June 7, 2016)

عدد الصفحات: ٤٨٠ صفحة.

* كاتب عُماني

«صندوق النقد الدولي: قوة عظمى في الساحة العالمية».. لأرنست فولف

عماد بن جاسم البحراني

صدر مؤخرًا عن سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، كتاب مُترجم بعنوان صندوق النَّقد الدولي قوة عظمى في الساحة العالمية للكاتب الألماني أرنست وولف، المؤلف يعمل أستاذاً للفلسفة في جامعة بريتوريا بجنوب أفريقيا، وقد ترجم الكتاب المترجم العراقي عدنان عبَّاس علي. يحتوي الكتاب على ٢٢ فصلاً، استعرض فيه المؤلف تاريخ الصندوق ابتداءً من مؤتمر بريتون وودز عام ١٩٤٤م، حتى عام ٢٠١٣، ويتميز الكتاب بانتقاده اللاذع لسياسات صندوق النقد الدولي الذي وصفه المؤلف بأنّه يُحارب الفقراء وليس الفقر.

وأدان المؤلف سياسية صندوق النقد الدولي لأنّه من وجهة نظره قد حرم شعوب أفريقيا وآسيا وجنوب أمريكا من الالتحاق بالمدارس.

يقول المؤلف في مستهل كتابه: -لقد كانت الإجراءات المدعومة من قبل الصندوق عاملاً جوهريًا في بلوغ اللاعدالة الاجتماعية، في العالم أجمع، مستويات لا مثيل لها في تاريخ البشرية-.

كيف كان هذا؟ وبأيّ وجه يحق لمؤسسة أن تتسبب في تعريض بني البشر لمصائب لا توصف ورزايا لا نهاية لها، أن تواصل نشاطها بلا عقوبة، وأن تحظى مستقبلاً أيضًا بمُساندة قوى صاحبة السلطان في زمننا الراهن؟ ولمصلحة من يا ترى يعمل صندوق النقد الدولي؟ ومن هو الطرف المُستفيد من إجراءاته؟

إنّ إعطاء الجواب الشافي عن هذه الأسئلة هو الهدف الذي يسعى الكتاب لتحقيقه.

قسم المؤلف تاريخ صندوق النقد الدولي إلى أربع مراحل رئيسة:

- المرحلة الأولى: فترة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، اتّسمت هذه المرحلة بتركيز الصندوق جهوده على تمكين الدولار الأمريكي من أن يكون العملة القيادية في العالم أجمع، وسعيه إلى فرض وصايته على الدول المستقلة حديثًا، خصوصاً الدول الإفريقية، وذلك من خلال منح هذه الدول القروض المالية والتي كانت بأمس الحاجة إليها، بعد ما نهبت الدول الاستعمارية خيراتها ومقوماتها الاقتصادية لعدة عقود.

- المرحلة الثانية: حينما أطاحت حركة انقلابية بالحكومة الشرعية في تشيلي، حيث تعاون الصندوق مع الدكتاتور بينوشيه ومع المؤمنين بالمبادئ التي تُنادي بها مدرسة شيكاغو الاقتصادية بقيادة ميلتون فريدمان، فتبنى الصندوق مبادئ الليبرالية الحديثة، جاعلاً منها المنارة التي يهتدى بها ويصوغ بحسبها سياساته المنفذة حتى اليوم. وقد مهدت هذه السياسات الطريق أمام المصارف والشركات العملاقة الأمريكية حصراً للوصول إلى أقصى ربوع المعمورة، فيما أسفرت في الدول النامية إلى حدوث مجاعات وفقر مدقع وتدهور كبير في النظامين التعليمي والصحي وغيرها من مستلزمات الرعاية الاجتماعية.

- المرحلة الثالثة: مرحلة انهيار الاتحاد السوفييتي وتفككك الكتلة الشرقية؛ حيث انتهز الصندوق هذه الفرصة التاريخية، لتمكين رأس المال الغربي من ولوج أسواق كانت موصدة الأبواب في وجهه آنذاك. وساهم في تعميق التفاوت الاجتماعي، وفي نشأة ثلة أوليغاركية صغيرة تمتلك ثروات لا قدرة للمرء على الإحاطة بحجمها، وفي تفاقم الفقر في صفوف غالبية مواطني الاتحاد السوفييتي.

- المرحلة الرابعة: هي المرحلة التي تعيشها البشرية الآن، والتي تسببت في اندلاع أزمة القروض العقارية الأمريكية مرتفعة المخاطر، هذه الأزمة التي ضربت النظام المالي العالمي في أسسه. وقد تدخل الصندوق في هذه الأزمة من أجل إصلاح وضع الموازنات الحكومية من خلال حفز الحكومات المعنية على انتهاج سياسة تقشف مالي تناسب العجز المالي الناشئ بسبب مضاربات قام بها مستثمرون يغامرون بمئات المليارات من الدولارات أو اليورو، لعلمهم أن الدولة لن تتركهم يفلسون. وأدت سياسة التقشف هذه إلى حدوث كوارث اجتماعية، تمثلت في زيادة نسبة البطالة وتقويض أسس الرعاية الاجتماعية وتعرض كثير من المواطنين لأبشع صنوف الفقر.

جدير بالذكر أنّ صندوق النقد الدولي برز للوجود بصفة رسمية في ٢٧ ديسمبر ١٩٤٥ بعد توقيع ٢٩ دولة على ميثاق الصندوق في مؤتمر بريتون وودز بالولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من ١-٢٢ يوليو١٩٤٤، وبدأ ممارسة أعماله في الأول من مارس ١٩٤٧، ويبلغ عدد أعضائه حالياً ١٨٨ دولة موزعة على خمس قارات.

ويختص الصندوق بتقديم القروض إلى الدول الأعضاء لمعالجة العجز المؤقت في موازين مدفوعاتها، وبذلك يعمل على استقرار أسعار الصرف. ويجب على الدول المقترضة أن تستشيره بشأن الخطوات التي تتخذها لتحسين وضع ميزان مدفوعاتها.

ومن الناحية الرسمية، تكمن وظيفة الصندوق الأساسية في العمل على استقرار النظام المالي، وتخليص البلدان المأزومة من مشكلاتها الاقتصادية، إلا أن المؤلف يصف الصندوق بأنّه ينتهك سيادة الدول ويجبرها على تنفيذ إجراءات ترفضها الأغلبية العظمى من المواطنين، ووصف تدخلات الصندوق بأنها أشبه بما تكون بغزوات جيوش متحاربة.

ويضيف أن الصندوق لم يستخدم في تدخلاته تلك، أسلحة أو جنودا، بل كان سلاحه الوحيد والبسيط هي عمليات التمويل وهي واحدة من آليات النظام الرأسمالي.

ونظرا لكون الصندوق الملاذ الأخير للحصول على السيولة النقدية، فلا مفر أمام حكومات الدول المأزومة، غير قبول عرض الصندوق وتنفيذ شروطه وإن ترتب على ذلك السقوط في فخ المديونية. وبدورها تحمل حكومات هذه الدول، الجماهير العاملة والفقراء من مواطنيها تبعات برامج التقشف المالي، وبالتالي تتسبب برامج صندوق النقد الدولي في خسارة ملايين العمال فرص عملهم، وحرمانهم من الحصول على رعاية

صحية فعالة، ونظام تعليمي مناسب، ومسكن يراعي كرامتهم الإنسانية.

ويحمل المؤلف صندوق النقد مسألة اتساع رقعة التفاوت الاجتماعي في جميع البلدان الخاضعة لتدخلاته، حيث يقول:» إن الحقيقة التي لا خلاف عليها هي أن سياسة الصندوق مكنت حفنة من الأغنياء من تراكم ثرواتهم بلا انقطاع، حتى في أزمنة الأزمات.

ويضيف أن الصندوق يقدم المساعدات منذ عقود، وفي بعض البلدان للمرة الثانية أو الثالثة، ولكن بلا أي زيادة في النمو أو الرخاء في الدول التي لجأت إليه باعتباره الملاذ الأخير للتزود بالسيولة، فالعكس هو الصحيح: فمديونية هذه الدول ازدادت تفاقماً من يوم إلى آخر، والفقر تتسع دائرته بلا انقطاع.

ويعتبر فولف أنَّ صندوق النقد الدولي كان أوّل خطوات الهيمنة الأمريكية على العالم بعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية، وأن الهدف من تأسيس هذا الصندوق هو تعزيز هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على النظام العالمي الجديد، وفرض سيطرتها على مقدراته.

فقد أصبحت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، أكبر دائن دولي، وتمكنت من السيطرة على ما يقرب من ثلثي احتياطيات الذهب في العالم، كما أنها تتحكم في نصف الإنتاج العالمي، ولم تكن لديها الرغبة في الاضطلاع بدور الدائن الرئيسي، كما كانت تريد التحكم في التدفقات المالية الدولية.

ويواجه الدور الأمريكي في صندوق النَّقد الدولي انتقادات وتساؤلات عديدة كان أهمها تحكم الولايات المتحدة الأمريكية في معظم القرارات لا سيما القروض، كما أنّها تستخدم الصندوق في ممارسة الضغوطات على الدول المدينة لتغيير سياستها لتتلاءم مع المصالح والتوجهات الأمريكية.

ويرى فولف أنَّ أخطر منعطف في تاريخ صندوق النقد الدولي كان في عهد مديره الثاني وهو السويدي إيفار رووت، حيث ربط الصندوق التمويل بشروط مجحفة، كانت بمثابة الضمان للتدخل في شؤون البلد المستدين، وكآلية للتدخل الخارجي في قواعد الحكم في البلدان المتأزمة.

في هذه الفترة ركز صندوق النقد الدولي اهتمامه على الدول الإفريقية التي نهب الاستعمار خيراتها، وكانت تتطلع لمكانته بين الأمم، وتبحث عن السيولة النقدية اللازمة للقيام بعملية التنمية والنهوض الاقتصادي والاجتماعي، فانضمت حوالي ٤٠ دولة إفريقية إلى عضوية الصندوق بين عامي ١٩٥٧-١٩٦٩م، بينها مصر وجنوب أفريقيا وأثيوبيا، لكن الذي حدث -حسب وصف المؤلف- أن هذه الدول خرجت من فخ الاستعمار إلى فخ صندوق النقد.

يرصد المؤلف بعد ذلك الأزمات العالمية التي يقف وراءها صندوق النقد الدولي عبر تاريخه من التجربة التشيلية في السبعينيات إلى أزمة الديون في أمريكا اللاتينية، التي تحول فيها الصندوق إلى لاعب دولي في إدارة الأزمات، مروراً بسعي الصندوق إلى دمقرطة الاتحاد السوفييتي قبيل سقوطه، ومن تمهيد الصندوق للحرب في يوغسلافيا إلى الأزمة الآسيوية، ومن الأزمة المالية العالمية عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨م إلى إفلاس اليونان.

حيث دلل المؤلف على السياسات غير الأخلاقية التي يتبعها صندوق النقد من خلال الاستشهاد بالأزمة اليوغسلافية، فهو حسب رأيه-أي الصندوق - ساهم بهمة وعزيمة في تفكيك يوغسلافيا، وذلك من خلال تعليق دفع المساعدات المالية لها في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين. وبهذا الإجراء شارك الصندوق في دفع شعب تعداده ٢٤ مليون نسمة إلى حياة البؤس والحرمان والتهلكة، وإلى إشعال فتيل صراعات دامية على أرض دولة متعددة الأعراق والأجناس مما أدى إلى تفكيكها في نهاية الأمر.

فقد كان تعليق المساعدات المالية المخصصة لميزانيات الأقاليم والولايات أخطر إجراء قام به الصندوق في يوغسلافيا. حيث أدى هذا القرار إلى منع تخصيص الأموال لأقاليم البلاد المختلفة، وتوجب استخدام تلك الأموال في سداد ديون البلاد لدى نادي باريس ونادي لندن، مما أدى إلى قطع الصلات المالية بين العاصمة بلغراد والأقاليم المختلفة، فقد علقت كرواتيا وسلوفينيا تسديد ما في ذمتهما من التزامات مالية حيال الصندوق والمخصصة لمساعدة الأقاليم الضعيفة اقتصادياً.

ويرى المؤلف أنَّ هذا الإجراء كان بمنزلة الفتيل الذي أشعل لهيب الصراعات القومية والحرب الأهلية، التي تذرع بها لاحقًا حلف الأطلسي والاتحاد الأوروبي للتدخل العسكري في يوغسلافيا، وأدى إلى انقسامها إلى دويلات.

وقد سعى المؤلف إلى تحليل الدوافع والأسباب التي تدفع صندوق النقد الدولي إلى التحرك بهذا النحو غير الأخلاقي؛ وخلص إلى نتيجة مفادها أنَّ الصندوق ليس مؤسسة معرضة للصواب والخطأ حالها في ذلك حال بني البشر، أو أنه مؤسسة تقودها مجموعة تفتقر إلى الكفاءة. إن التعلل بهذه الحجة لا يؤيدها الواقع بتاتا، والأقرب إلى الحقيقة برأيه أن الصندوق يتحرك انسجامًا مع تطور النظام المالي العالمي، هذا النظام الذي تعرض منذ سبعينيات القرن العشرين لعملية تحرير متصاعدة، وتطور بخطوات سريعة، بحيث إنه صار يتفوق في حجمه على القطاع الحقيقي، أي القطاع الإنتاجي.

وفي ختام كتابه يتنبأ المؤلف بمستقبل لا دور فيه لمُنظمات من قبيل صندوق النقد الدولي، حيث يقول: « لو نجحت الجماهير العاملة، على الرغم من كل الظروف المعاكسة، في اكتشاف أكاذيب وسائل الإعلام والسياسيين، ولو أفلحوا في تحرير أنفسهم من فخ الأحزاب والمنظمات التقليدية، وطوروا تنظيمات وأساليب كفاح حديثة تتماشى مع متطلبات الزمن الحاضر، فلا مراء في أن هذه الجماهير ستكون لديها فرصة تاريخية: إذ سيكون بوسعها - انطلاقاً من المستويات التقنية والعلمية المتحققة في العصر الراهن- إقامة مجتمع لا تسيطر فيه أقلية جشعة، لا يشبع نهمها للربح وتراكم الثروات، بل تسيطر عليها الرغبة في تلبية الحاجات الاجتماعية المهمة بالنسبة إلى أكثرية أبناء الشعب.

لكن المؤلف في ذات الوقت يؤكد أنّه لا يُمكن التكهن بالهيئة التي سيكون عليها هذا المجتمع مستقبلاً في حال حدوث هذه التطورات التي يتنبأ بها.

الكتاب: «صندوق النقد الدولي: قوة عظمى في الساحة العالمية».

المؤلف: أرنست فولف.

ترجمة : د. عدنان عباس علي.

سلسلة : عالم المعرفة ، ٢٠١٦م.

الناشر : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.

عدد الصفحات : ٢٦٦ صفحة.

* كاتب وباحث عُماني

«عوالم الصدق: نحو فلسفة للمعرفة».. لإسرائيل شفلر

منى أحمد أبو زيد *

مؤلف الكتاب هو فيكتور إس توماس، فيلسوف تربوي أمريكي، وهو براجماتي النزعة ومن أبرز الفلاسفة المعاصرين في ميدان فلسفة التربية، وفلسفة اللغة، وفلسفة العلم، ورائد اتجاه التحليل الفلسفي في ميدان فلسفة التربية. وُلد شفلر في مدينة نيويورك سنة ١٩٢٣ ويعمل حاليًا أستاذًا فخريًا في جامعة هارفارد.

ويُعد كتاب شفلر «عوالم الصدق» نتاجًا لحصاد السنين التي عاشها، فهو من أواخر ما كتب. ففي هذا الكتاب تبرز اللحظة التاريخية التي تعبّر عن أصالة النص الفلسفي حين يجمع في طياته خبرة صاحب النص ممزوجة بخبرات الآخرين، وتبرز أصالته في عمق تحليله، وفي نزعته النقدية.

وموضوع هذا الكتاب فلسفة المعرفة. وقد ارتبطت المعرفة بوجود الإنسان منذ لحظة ميلاده ونموه وتطوره. فبدأ محاولاً التَّعرف على نفسه، والتعرف على موجودات العالم حوله. فحدث نوع من الاتصال والتواصل بينه وبين الموجودات. وهي محاولات ممزوجة بالعاطفة أحيانًا، وبالخيال أحيانًا أخرى، وبالمنفعة في كثير من الأحيان.

وموضوع المعرفة في ذاته قديم قِدَم الفلسفة نفسها، حيث يمثل مبحث المعرفة أحد مباحث الفكر الفلسفي، بل إن أهم مشكلة تناولتها الفلسفة منذ نشأتها، وتعددت فيها الآراء وتشعبت فيها المذاهب على مرّ تاريخ الفلسفة وعلى الأخص في عصرها الحديث في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد استمر الاهتمام بفلسفة المعرفة حتى يومنا هذا، وبصفة خاصة مع التطورات العلمية التي أثرت بدورها على الاتجاهات الفلسفية المعاصرة. وأصبح الاهتمام ينصب على دراسة كيفية نُمو المعرفة وتطورها، باعتبارها ظاهرة طبيعية مثل أي ظاهرة طبيعية أخرى. والكشف عن العلاقات الرابطة بين عناصرها وبين العناصر الأخرى التي تكوّن فلسفة المعرفة.

يتكوَّن الكتاب من مقدمة وستة فصول. تندرج هذه الفصول في جزئين: الجزء الأول مقسم إلى ثلاثة فصول. الفصل الأول يتناول موضوع «التبرير»، والثاني يتناول موضوع «الصدق»، والثالث يتناول موضوع «العوالم». والفصول الثلاثة اللاحقة التي تمثل (الجزء الثاني) توضح بعض الموضوعات الرئيسة في هذا الكتاب وتتوسع فيها.

أما الفصل الأول، وعنوانه «التبرير»، فيتناول مسائل إبستمولوجية تهتم بكيفية اختيار الحقائق الصادقة. وفي التبرير يعالج شفلر الاعتقادات، وطرق بلوغ الصدق، وفكرة اليقين، سواء اليقين الرياضي أو اليقين في المنطق الكلاسيكي، أو لدى الاتجاه التجريبي، وذلك برفضه الدعوات العديدة التي تطالب باليقين بوصفه خاتمة سلاسل التبرير التي تزعم أنها توفر لمعتقداتنا طريقًا غير مُباشر للصدق.

وينتقد شيفلر العقليين وعلى رأسهم ديكارت، مفندًا اليقين الرياضي، وكذلك اليقين في المنطق الكلاسيكي المبني على قانون عدم التناقض.

ويرتبط التبرير عند شفلر بالاعتقادات ارتباطًا قويًا، حيث إن التبرير ما هو إلا تبرير للاعتقادات. لذا يرى شفلر أن فكرة التبرير الحقيقية عبارة عن إنجاز مُعقد لا يكون متاحًا قبل وجود المعتقدات. ومهما كان فهمنا للتبرير فلا يمكنه أن يتم دون تناول بعض المعتقدات المحددة بوصفها مسلماً بها، وسابقة على تبريرها ذاته.

ويتناول الفصل الثاني موضوع «الصدق» ويعرض الانتقال من الإبستمولوجيا إلى الإشارة، مرورًا بالاهتمام بكيفية اكتساب الحقائق وصولاً إلى ما تثبته هذه الحقائق الصادقة. ويتوقف شفلر عند فكرة الصدق المطلق، ويرى أنها فكرة ليست شائعة حاليًا حيث ساد اعتقاد خاطئ بأن العلم قد حل محلها.

وإذا كانت المعرفة عند شفلر تبدأ بنقد كافة معتقداتنا، وإخضاعها للتنقية، والإبقاء على المعتقدات الأكثر صلاحية والأكثر معقولية. فإنه يزعم بأن هذه الصلاحية ليست ثابتة بشكل نهائي، بل تتعرض للتغير والنمو. والنتيجة بناء على ذلك أنّه لا يوجد اعتقاد له مدخل مُباشر للصدق، بل إن مدخله للصدق غير مباشر. وبالتالي فالأمر يتطلب تبريرًا يعتمد على الدليل الداعم لهذا الصدق. ومن ثمَّ تظهر بوضوح العلاقة الرابطة بين الاعتقاد والصدق والتبرير.

ويستعرض شفلر طرق الصدق عند العقليين، وكذلك عند التجريبيين، مؤكدًا نزعة نقدية واضحة. وينقد الصورة المألوفة عن الصدق في تاريخ الفلسفة عند العقليين والتجريبيين، فينتقد الطابع التسلسلي في عملية بلوغ الصدق، إذ إن كلاً من الاتجاهين يبدأ من نقطة انطلاق محددة تمثل الأساس الراسخ في عملية المعرفة وبلوغ الصدق. فاعتمد العقليون على روابط أولية في العقل جعلوها محصنة من الشك، والتجريبيون أسسوا يقيناً مثل هذه الروابط ولكن تقوم على المُعطيات الحسية المُستمدة من التجربة. وكلا الاتجاهين يفترض مجموعة عناصر يتعاملون معها على أنَّها صادقة. وهذا ما يرفضه شفلر ويرى أنَّه تم نقضها تمامًا، سواء في الرياضيات أو في العلوم التجريبية. فلم تعد الرياضيات- موطن الفلسفة العقلانية- ملجأ للصدق الذي لا شك فيه، بل أصبحت تنمو وتزدهر على الشك والتأمل. والعلم التجريبي- إلهام الفكر التجريبي- أنتج الكثير من النظريات الموثوق بها والتي صدت النزعات الدجماطيقية الموروثة.

أما الفصل الثالث وهو بعنوان «عوالم» فيتناول الموضوعات الميتافيزيقية، ويعرض شفلر فيه المناقشات الفلسفية التي دارت بين أصحاب مذهب الوحدة وبين القائلين بمذهب التعدد. ويرفض اتجاه هاتين المدرستين في التفكير، ويتحدث عمَّا يسميه بالتَّعددية الواقعية، وهو المذهب الذي يشير إلى وجود العديد من العوالم الواقعية، وليس كما يدعي غير الواقعيين من أنه لا يوجد أي شيء، أو كما يدعي الفيزيائيون من أنه يوجد عالم واحد فقط.

ويعتقد شفلر أننا نعيش في عوالم عديدة، نتعرف عليها من خلال الطرق العلمية، وتخضع لعدد

من مجموعات الصدق التي لا ترد إلى مجموعة واحدة. إن القول بوجود نظرية لكل شيء يُعدّ تصورًا وهميًا. إن العلم يمر بمرحلتين الأولى أن هدف العلم هو الاقتصاد. والأخرى مرحلة يسعى فيها العلم إلى اكتشاف مجالات جديدة لصقلها وتنميتها.

ويدعو شفلر إلى «الواقعية التعددية» وهي واقعية مضادة للواقعية واللا واقعية في آن معًا. واقعية مضادة للواقعية التي تقول بأن العالم واحد، وتعددية ترفض أن تكون العوالم هي تقريراتنا وأوصافنا عنها. أي يرفض أن يتم تشكيل العوالم عن طريق وضع النسخ التي تحمل الرؤى المتعددة عن العالم.

والواقع أن النزعة الوسطية المعتدلة التي يدعو إليها شفلر نجدها أيضًا عند بعض زملائه من الفلاسفة المعاصرين له أمثال: هيلاري بنتام، وكاثرين إلجين، وماري هيس، على اختلاف ما بينهم.

والجزء الثاني من الكتاب بعنوان «موضوعات براجماتية ذات صلة» وهو جزء يتمم صورة فلسفة المعرفة كما يراها شفلر. ويتصل الفصل الرابع بتوجهه البراجماتي وبمصدره الكلاسيكي عند «بيرس» مشددًا على نقده لديكارت، وعلى مذهبه المضاد للنزعة الأصولية، وعلى فهمه للعلم.

ويقدم الفصل الخامس محاولة لتطبيق رأي شفلر التفاعلي عن التبرير ليس فقط بالنسبة للعلم، ولكن أيضًا بالنسبة للأخلاق. وتُعد فكرة التبرير أحد مفاتيح الأخلاق المعيارية. في حين يذهب بعض المفكرين إلى أن القضايا الأخلاقية يمكن ردها فعلاً إلى قضايا علمية حقيقية. فيقول جون ديوي: إن العبارات الأخلاقية مساوية للادعاءات التجريبية.

أما الفصل السادس فيربط شفلر فيه الفهم بالعواطف، سواء في العلم، أو في الفلسفة، أو في الفن، ومن ثم يضرب مثلاً للتأكيد البراجماتي على ربط النظرية بالممارسة. ولم يعد العلم وحده هو مصدر المعرفة، بل إن المعرفة العلمية نمط من أنماط المعرفة يشترك في علاقة تفاعل مع الأنماط الأخرى، فلم يعد هناك فصل حاد وحاسم بين العلم والفلسفة والفن والأخلاق. بل إن هناك علاقات تداخل وتشابه، وتعاون وتأثير وتأثر، فالفلسفة ليست بأكثر من العلم يمكن لها أن توحي نتائجها ببساطة وليست بأقل من العلم حين تناضل من أجل الموضوعية المتعلقة بالتقييدات المنهجية المستقلة بذاتها والتي قد تتغير.

وتقدم المترجمة في مقدمتها للكتاب خلاصة الموقف الإبستمولوجي عند شفلر الذي يقوم على تفعيل الكثير من المبادئ البراجماتية، ومنها مبدأ اللا عصمة من الخطأ فلا يوجد في المعرفة ما هو محصن ضد الشك، أو بمنأى عن التغيير المستمر. لذا يرفض شفلر الاستناد إلى معتقدات أساسية تبعد عن تهديد التغير. فالمعرفة عنده تبدأ بعملية نقدية تقوم على التأمل المستمر في معتقداتنا الأساسية التي تزخر بها عقولنا. وليست هذه المعتقدات ثابتة وليست معصومة من الخطأ، ويؤدي التجديد المستمر إلى التغيير حتى في المعتقدات الأساسية التي نبدأ منها عملية المعرفة أو الفروض التي نبدأ بها العلم.

ولا يرى شفلر أي فجوة بين البراجماتية والمناهج التحليلية في الفلسفة، فجمع بينهما حتى أصبح رائدًا من رواد الاتجاه التحليلي في عصرنا. وذلك لإدراكه أن البراجماتية بدون الحجة والتحليل تصبح مجرد موقف وليست فلسفة حقًا. لذا يرى شفلر أن كبار البراجماتيين الأمريكيين لم يتخلصوا من التحليل الفلسفي، بل قاموا بتطبيقه بمعنى مبتكر على نطاق واسع على المشكلات المعاصرة.

وتعقب المترجمة على الكتاب الذي بين أيدينا بأن ما يعني باحث الفلسفة في مجتمعاتنا العربية، ليس طائفة المعلومات التي يأتي بها الفلاسفة أو المفكرون في مؤلفاتهم، أو كم النتائج التي يصلون إليها باعتبارها ثمار فكرهم الخاص؛ فليس المطلوب أن نقف عند مجرد حشد من المعلومات المجردة، دون أن نعلم أو نتعلم الطريقة التي وصلوا بها إلى هذه المعلومات، أو كيف وصلوا إلى نتائجهم، أو كيف يحلون مشاكلهم التي تواجههم. و«منهجية التفكير» هي ما ينبغي أن نهتم بها على الدوام فلا يعنينا المذهب بقدر ما يعنينا المنهج. فالمنهج هو المفتاح الذي يفتح لنا الغرف المغلقة، ويضيء لنا الطرق المظلمة، ويقود التفكير نحو الهدف المنشود.

وتستخلص المترجمة مجموعة من المبادئ المنهجية التي تفيد باحث الفلسفة أو تفيد القارئ العربي عمومًا من خلال الممارسات المنهجية عند شفلر. ومن هذه المبادئ المنهجية:

يثبت لنا شفلر أن المعرفة أو العلم أو أي مجال معرفي لا يبدأ من الجهل المطلق، ولا ينتهي إلى الكمال المطلق، بل يبدأ من المعتقدات الأساسية أو الآراء السابقة أو السائدة، فتنمو المعرفة وتتطور من خلال التواصل والاتصال بين القديم والجديد.

يقدم شفلر نموذجًا عمليًا لمعنى التحليل بوصفه نقدًا للآراء السابقة والسائدة، نقدًا يقوم على الاستبعاد والانتقاء، الهدم والبناء. ويستبعد الجوانب السلبية ويبقي الجوانب الإيجابية، ثم يضعها في مركب جديد تحكمه ضوابط صادقة، تقوم على التفاعل المتبادل فيما بينها.

إن المبدأ الذي نحن أحوج ما نكون إليه في وقتنا الحاضر هو ربط النظر بالعمل، أو ربط النظرية بالممارسة. أي أن أفكارنا تصبح صحيحة بقدر ما تؤديه بنجاح في حياتنا العملية، وأن اختبار صدق أفكارنا أو صلاحيتها يعود إلى ما تحققه من نجاح في تحقيق أهدافنا.

إن المعرفة لم تعد حلية تضاف إلى الشيء لتزيينه، ولم يعد المقصود منها استنارة العقل حتى يتحول صاحبها من جاهل إلى عارف، إنما هي الضرب الذي لا يغير الإنسان فحسب، بل يغير العالم من حوله.

الكتاب: «عوالم الصدق: نحو فلسفة للمعرفة».
تأليف: إسرائيل شفلر.
ترجمة: فاطمة إسماعيل.
الناشر: المركز القومي للترجمة- القاهرة، ٢٠١٥م.
عدد الصفحات : ٣٠٢ صفحة.

* أستاذ الفلسفة الإسلامية- كلية الآداب- جامعة حلوان- القاهرة

لماذا يحارب القادة؟

فينان نبيل *

لا يحصل القادة عادة على اهتمام كبير من علماء العلاقات الدولية، الذين يميلون إلى تفضيل النماذج المجردة لتجارب صناع القرار، بينما يقدم مؤلفو كتاب «لماذا يحارب القادة» بشكل حاذق مشكلة صعبة يتقاطع عندها العلوم السياسية والتاريخ وعلم النفس، وهي : كيف تؤثر سمات الزعماء والقادة الشخصية على تشكيل قراراتهم، ومواقفهم في مواجهة المخاطر؟ يلعب القادة السياسيون دورًا رئيسًا في تشكيل مصائر بلدانهم؛ فالقائد هو المسؤول عن اتخاذ القرارات التي تتعلق بالسلم والحرب فضلاً عن صياغة التوجهات الداخلية والخارجية لسياسات بلاده وأسلوب التعامل مع مستجدات الأحداث علي مختلف الأصعدة؛ لذلك فإنّ الكتاب يكتسب أهمية كبرى إذا إنّه يعيد القادة إلى بؤرة اهتمام علم العلاقات الدولية، حيث يحاول المؤلفون البحث عن أسباب اتخاذ القائد السياسي قرار الحرب، وذلك باستخدام إطار منهجي يدمج بين التاريخ والعلوم الاجتماعية الحديثة ونظريات العلاقات الدولية، متلمسين الإجابة في البحث عن كيفية تشكل معتقدات القادة، ورؤيتهم للعالم والحرب، وفي البحث عن مدى تأثير خبرات حياتهم الخاصة على قراراتهم السياسية في الحرب والسلام. يمكن القول إن كتاب (لماذا يحارب القادة) - الذي كتبه ثلاثة من المتخصصين في علم العلاقات الدولية بالجامعات الأمريكية - يسد فجوة عميقة بين الدارسة الأكاديمية التي تقوم على نظريات مجردة، وواقع عملي يستند إلى أحداث حقيقية شكلت مصائر الشعوب من خلال فحص دقيق لمعلومات وفيرة عن الحياة الشخصية لأكثر من ٢٤٠٠ قائد سياسي حكموا العالم خلال الثلاثة قرون الماضية .

يبدأ الكتاب بمُقدمة تبحث عن أسباب استمرار زعيم بارجواي -سولانو لوبيز- في حربه التي بدأت عام ١٨٦٤م ضد تحالف يضم ثلاث دول هي البرازيل والأرجنتين وأورجواي رغم إلحاقهم به هزيمة ساحقة أدت إلى خسائر بشرية تجاوزت ٦٠٪ من سكان بارجواي، فضلاً عن تدمير البنية التحتية لبلاده، ورغم إتاحة أكثر من فرصة لحقن دماء أبناء وطنه من خلال جولات مفاوضات متقطعة أفشلها تمسك لوبيز باستمرار الحرب حتى قُتل في نهاية ست سنوات من القتال الدامي منهياً حرباً تعد الأكبر في خسائرها منذ توقيع معاهدة وستفاليا حتى الآن .

ويستنتج الكُتّاب أن لوبيز - كمثال للقائد الذي شكلت رؤيته الشخصية مصير بلاده - اتَّجه لاتخاذ قرار الحرب تحت تأثير التربية الاستبدادية التي تلقاها على يد والده دكتاتور بارجواي الأسبق، إضافة إلى التربية العسكرية التي تلقاها خلال فترة المراهقة دون خوض لحروب حقيقية والأوهام التي روجها المحيطون به حول تمتعه بعبقرية عسكرية فذة سيطرت على أفكاره ومثلت قيودًا منعته من التفكير الاستراتيجي السليم فمال إلى البحث عن مجد شخصي زائف من خلال تحقيق نصر عسكري، وحينما ألحقت به هزيمة عسكرية نكراء أصر على استمرار الحرب رافضًا ما أسماه عار الهزيمة ومحافظًا على معنى الشرف العسكري طبقا لمعتقداته ومفاهيمه الشخصية مهما كان لاستمرار الحرب من آثار مدمرة لبلاده وشعبها .

يستمر المؤلفون في تحليل قرارات عدد من القادة السياسيين الذين لعبوا أدوارا رئيسة في خوض بلادهم الحرب مثل الرئيس الأمريكي السابق -جورج دبليو بوش- الذي يعد المحرك الأساسي للحرب الأمريكية على العراق، فيرى المؤلفون أنه في ضوء أحداث الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية فإنّ أي رئيس أمريكي - مهما كانت توجهاته الشخصية - كان سيتخذ قرار الحرب على أفغانستان عام ٢٠٠١، بينما الحرب على العراق عام ٢٠٠٣ لها شأن مختلف؛ فلو أن المرشح الديمقراطي (آل جور) الذي نافس بوش الابن على مقعد الرئاسة الأمريكي هو الفائز بالانتخابات لاختار تشديد العقوبات الاقتصادية على الرئيس العراقي صدام حسين بدلاً من خوض الحرب ضده، كما أشار المؤلفون إلى أنَّ التفضيلات الشخصية للرئيس الروسي -فلاديمير بوتين - هي المُحرك الأساسي لبدء العمليات العسكرية الروسية في أوكرانيا وشبه جزيرة القرم.

يذهب المؤلفون من خلال ست فصول يتضمنها كتاب (لماذا يحارب القادة) إلى ذكر عدد من العوامل التي تفسر سلوك القادة السياسيين ومدى تأثيرها على قراراتهم في دخول الحروب من بينها:

طبيعة السلطة: يؤكد المؤلفون أنَّ القادة الذين يتمتعون بسلطات مطلقة في اتخاذ القرار يكونون أكثر عرضة للدخول في صراعات مسلحة مثل -جوزيف ستالين- الذي كان سبباً في تورط الاتحاد السوفيتي السابق في عدد من الصراعات المسلحة، فيما يواجه القادة الديمقراطيون قيودا محلية وعالمية تحد من إراداتهم الشخصية في اتخاذ القرارات المصيرية مثل الرئيس الأمريكي روزفلت الذي فشل في تنفيذ سياساته لزيادة حجم الجيش الأمريكي خلال حقبة الأربعينيات من القرن الماضي.

- الخبرة القتالية السابقة إذ يعد القادة العسكريون الذين واجهوا الموت في حروب سابقة أقل رغبة في خوض غمار الحروب مجددا من القادة العسكريين الذين لا يملكون خبرة قتالية سابقة، فعلى سبيل المثال كانت الخبرة القتالية السابقة

للرئيس الفرنسي -جاك شيراك في الجزائر دافعاً لعدم اندفاعه نحو المخاطرة والمشاركة في الحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣ ، فيما كانت الخبرة العسكرية للرئيس الأمريكي -جورج بوش الابن- وخدمته في الحرس الوطني الأمريكي دون خوض معارك قتالية حقيقية عاملاً أساسياً في توجهه نحو اتخاذ قرار الحرب، غير أن هذه الفرضية ليست صحيحة على إطلاقها؛ فالرئيس الأمريكي الأسبق -جيمي كارتر- خدم في سلاح الغواصات بالبحرية الأمريكية وله خبرات قتالية معروفة لكنه كان أقل رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ميلا لتورط بلاده في الحروب.

-خبرة القادة في الحركات الثورية: كما يذهب المؤلفون إلى أن خبرة القادة في الحركات الثورية من الأسباب التي تجعلهم أكثر إيمانا بضرورة امتلاك بلادهم لنظم تسليح متطورة في مقدمتها الأسلحة النووية بهدف حماية بلادهم من الغزو، وهو ما يفسر - من وجهة نظر مؤلفي الكتاب - سعي الرئيس العراقي -صدام حسين- والرئيس الكوبي -فيدل كاسترو- ، والإسرائيلي- بن جوريون- للحصول على أسلحة نووية، وكذلك الصين خلال فترة حكم- ماو تسي تونج- كمثال يربط بين وصول الزعيم الثوري للحكم وانتشار الأسلحة النووية. كما أن الاشتراك في انقلابات عسكرية ، أو حركات تمردية، ثم الوصول للسلطة يعزز من استخدام القادة للعنف، فهم من هذا المنطلق أكثر ميلا لتوريط بلادهم في صراعات مسلحة بعد وصولهم للحكم مباشرة.

- معايشة القادة أحداثا مريرة ومؤلمة في الطفولة : يؤكد مؤلفو كتاب (لماذا يحارب القادة) أن معايشة القادة أحداثا مريرة ومؤلمة في الطفولة من أهم العوامل التي تشكل شخصياتهم وتوجهاتهم في اتخاذ القرارات المصيرية، فبعضهم يحاول تجنب تكرار هذه الأحداث ويتلافى اللجوء إلى العنف، فيما يتجه البعض الآخر إلى استخدام العنف كوسيلة لحل الصراعات السياسية، ويفترض المؤلفون علاقة طردية بين العيش في طفولة مضطربة وانخراط القادة فيما بعد في سلوك عدواني.

- عمر القائد : أورد مؤلفو الكتاب عوامل أخرى كالعمر من ضمن العوامل التي تؤثر على اتخاذ القرار، فقد ذهبوا إلى أن القادة الشباب أقل احتمالية للدخول في صراعات عن القادة كبار السن، فالقادة الشباب يميلون إلى الطرق السلمية

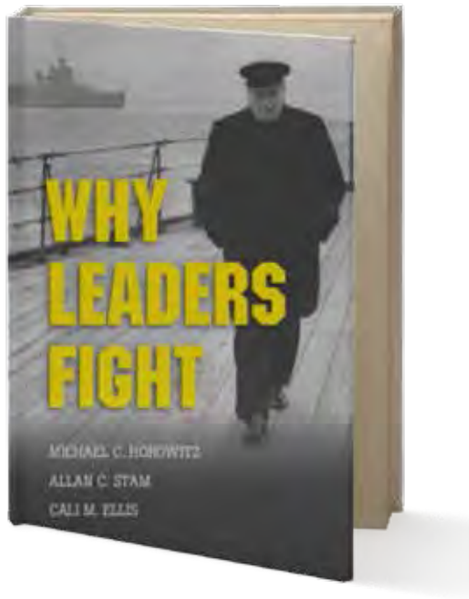

في تسوية الخلافات، أما القادة كبار السن - من وجهة نظر المؤلفين - فيميلون أكثر إلى جر بلادهم لصراعات مسلحة تستهدف تحقيق أمجاد شخصية تخلد ذكراهم .

-النوع : بالرغم من الاعتقاد السائد بأن النساء قد يكنّ قائدات أقل تشددا من الرجال، توصل المؤلفون إلى أن النوع ليس مؤثرا بشكل كبير في الدخول في الحروب. ويخصص الكتاب جزءًا لخمسة من القيادات النسائية في دول مختلفة ، في الفلبين -كورازون أكينو-، و-بنازير بوتو- في باكستان، و- كيم كامبل- في كندا، و-غولدا مائير- في إسرائيل، و-مارغريت تاتشر- في بريطانيا العظمى ، وتعد - مارغريت تاتشر- مثالا جيدا على خلفية من شخصيتها القوية، فقد واجهت تاتشر بقوة هجوم الأرجنتين على جزر فوكلاند في عام ١٩٨٢.

- الثروة والتعليم ومجال العمل :استمر مؤلفو الكتاب في رصد عدد من العوامل الأكثر حسما والتي من شأنها تفسير سلوك القادة السياسيين تجاه اتخاذ القرارات المصيرية مثل الثروة والتعليم ومجال العمل قبيل الوصول إلى السلطة فضلا عن البيئة الاجتماعية والأسرية التي نشأ من خلالها وهو ما يفسر تركيز وسائل الإعلام على خلفية المرشحين وتناولها بالفحص الدقيق في محاولة لفهم قراراتهم عند وصولهم للحكم،على سبيل المثال في الانتخابات الأمريكية الحالية لخبرة المرشح الجمهوري -دونالد ترامب- في مجال الاقتصاد، وتاريخ المرشحة الديمقراطية -هيلاري كلينتون- في الكونجرس وكوزيرة للخارجية الأمريكية،وتركيز الإعلام فيما مضى على تناول تجربة طفولة أوباما ومدى تأثير انفصال والديه على توجهاته في اتخاذ القرارات السياسية .

ويمكن القول إن مؤلفي الكتاب حاولوا فهم كيفية اتخاذ القادة السياسيين لقرارات الدخول في حرب استنادا إلى معرفة الخلفيات التاريخية والاجتماعية والنفسية لهؤلاء القادة ومدى تأثيرها على سلوكياتهم المستقبلية فيما يعد أداة مفيدة للمواطنين والباحثين الأكاديميين لمعرفة أي من هؤلاء أكثر ميلا للانخراط في سلوك عدواني، فضلا عن كشف اتجاه قراراتهم حال وصولهم للسلطة .

هذا كتاب حول زعماء العالم وكيف كانت تجاربهم قبل توليهم الحكم وهو يقدم مجموعة البيانات الأكثر اكتمالا عن التجارب السابقة لأكثر من عشرين قائدا، تشمل مرحلة الطفولة، والخدمة العسكرية إلى مرحلة الزواج، لكل زعيم منهم منذ عام١٨٧٥ إلى عام٢٠٠٤.

وضع المؤلفون إطارا عاما للسياسات والبحوث المستقبلية مؤكدين أن العامل الأكثر أهمية في عمل الدول واتخاذ قراراتها هو القيود الهيكلية والمؤسسية، وأنواع الحكومات، وتوصلوا إلى أن الدول الاستبدادية والأنظمة ذات الخلفية الثورية أكثر نزوعا لخوض الحروب.

وقد كتب - إيزايا برلين - المفكر السياسي البريطاني ذات مرة أن الأكثر أهمية في فهم عوامل إصدار الأحكام السياسية هو أن نتلمس التفاعل بين البشر والقوى غير الشخصية وأن نتفهم كل حالة في تفردها الكامل، والأحداث والمخاطر، والآمال والمخاوف التي تحكم القرار في مكان معين في وقت معين.

الكتاب: «لماذا يحارب القادة؟».

المؤلفين: مايكل - سي- هورويتز يعمل أستاذًا للعلوم السياسية بجامعة بنسلفانيا، وآلان سي ستام يعمل أستاذا مساعدا للعلوم السياسية بجامعة ميتشيجان، وكالي .ام. أليس يعمل باحثاً بمركز الدراسات الدولية التابع لجامعة شمال كاليفورنيا.

الناشر: جامعة كامبريدج، ٢٠١٥.

اللغة: الإنجليزية

* كاتبة وباحثة مصرية

حاليـــاً في الأســـواق

مجلة التفاهم

عنوان العـــدد: الاســـلام :الفكرة والدعوة والبلاغ

افتتاحية العدد: الفكرة والدعوة والبلاغ: عبد الرحمن السالمي.

المحـــــور

- صحيفة المدينة : الدعوة والبلاغ والمواطنة: عبدالله بن بية.
- الرؤية القرآنية لدعوات الرسل وشمولية الرسالة: عبدالرحمن حللي.
- مفاهيم الأمانة في القران والسنة وأعمال المفسرين: محسن العوني.
- الفكرة والدعوة والفقة والدولة في الازمنة الوسطية، إطار إجمالي للرؤية: نور الدين الخادمي.
- انتشار الاسلام في الرؤى الاستشراقية، توماس آرنولد أنموذجا: أحمد الزعبي.
- السلطة والشرعية وحكم القانون: النموذج الروماني : فايز حسين محمد.
- أزمة الشرعية في التجربة التاريخية الاسلامية: صلاح الدين الجورشي.
- رجال الدين امام السلطة السياسية: نصائح الملوك الاسلامية ومرايا الأفراد : عز الدين العلام.
- الدولة المستوردة والدولة المستحيلة: قراءة في كتابي بادي وحلاق: محمد الشيخ.
- استعادة السكينة في الدين وسلامة الإنسان والعمران: رضوان السيد.

* فهارس المجلة من العدد ١ إلى العدد ٥٠

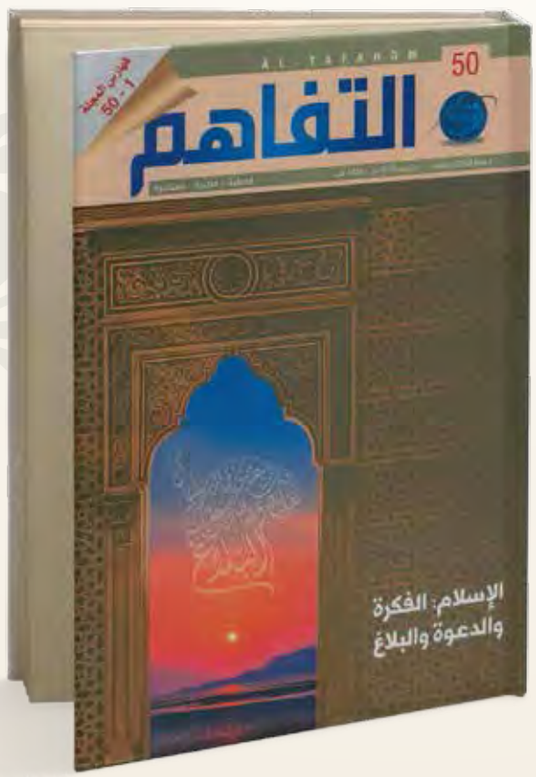

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+

البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net